رحلة كاليبسو إلى الليث على ساحل البحر الأحمر (1951م)

لـ هارون تازييف

ترجمة: الشريف عبدالعزيز بن عبدالله آل عجلان القاسمي

2025

المحتويات

العنوان	الصفحة
المقدمة	2
المؤلف	3
جبل الليث	4
السرطانات	13
الكادحون في البحر الأحمر	28
عالم الأعماق المائية	35
في قصر الأمير	42
ضيوف أم أسرى	51
علم المحيطات	60
تعرجات في البحر الأحمر	74

مقدمة الترجمة

تُمثّل هذه الترجمة جزءًا من الدراسة الميدانية التي قدّمها العالِم والرحّالة الفرنسي هارون تازيف (Haroun Tazieff) ضمن كتابه الموسوم «في البحر الأحمر مع كاليبسّو» (In the Red Sea with Calypso)، وهي ترجمة مخصصة لتوثيق مشاهداته العلمية والأنثروبولوجية في سواحل مدينة الليث وجزيرتها، كما وردت في الفصل الخامس وما يليه من الكتاب.

شارك تازيف في هذه الرحلة ضمن البعثة الفرنسية بقيادة جاك إيف كوستو، التي هدفت إلى دراسة البنية الجيولوجية للبحر الأحمر، وتحليل تكويناته البركانية والمرجانية، ورصد الظواهر الزلزالية في أعماقه. وقد امتاز أسلوب تازيف بالجمع بين الملاحظة الميدانية الدقيقة والتحليل العلمي المدعوم بالأجهزة الحديثة آنذاك، كأجهزة قياس الأعماق والرصد الصوتي.

تكتسب مشاهدات تازيف في منطقة الليث أهمية خاصة ضمن هذا السياق، إذ سجّل خلالها بيانات تتعلق بجيومورفولوجية الساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية، وتوصيف التركيب البنيوي لجبل الليث، الذي اعتبره نموذجًا بارزًا لتاريخ النشاط البركاني القديم في البحر الأحمر. كما أشار إلى الخصائص الفيزيائية للحمم المتصلبة، والتكوينات البازلتية التي تشكّل السلسلة الجبلية المحيطة بالبلدة.

إلى جانب الملاحظات الجيولوجية، تضمّن وصف تازيف توثيقًا اجتماعيًا وثقافيًا موجزًا لحياة سكان الليث، الذين وصفهم بأنهم يتميزون بثبات التقاليد العربية البحرية، وبنمطٍ معيشِي يقوم على الصيد والتجارة الساحلية والضيافة المتوارثة. كما سجّل ملاحظاته حول الطابع العمراني للبلدة، مشيرًا إلى القلعة الرئيسة التي تُشرف على الميناء وتُعدّ معلمًا دفاعيًا بارزًا، وإلى زيارة الأمير المحلي التي حظيت بها البعثة أثناء وجودها في المنطقة، وما اتسم به اللقاء من طابع رسمي وترحيب واضح بالبعثة العلمية.

من خلال هذه الشواهد، يظهر اهتمام تازيف بفهم العلاقة بين البنية الجيولوجية والمجتمع الساحلي المحلي، إذ ربط بين تطور النشاط البحري للسكان وطبيعة التكوينات الساحلية التي يعيشون ضمنها. ويُعدّ هذا التكامل بين الملاحظة الطبيعية والاجتماعية سمة مميزة لأعماله الميدانية.

تهدف هذه الترجمة إلى إتاحة النص العلمي المتعلق بالليث وجزيرتها للقارئ العربي، مع الحفاظ على روح النص الأصلي ودقّة مصطلحاته العلمية، وإبراز القيمة التوثيقية لهذه الرحلة التي تمثل واحدة من أوائل الدراسات الحديثة حول البنية الجيولوجية للبحر الأحمر وسواحله الغربية.

المؤلف

هارون تازيف (Haroun Tazieff)
عالم جيولوجيا، وباحث بركاني، ومستكشف فرنسي من أصول بولندية (1914–1998م). يُعدّ من أبرز علماء القرن العشرين في دراسة البراكين النشطة وتفسير الظواهر الجيوديناميكية للأرض. درس الهندسة والجيولوجيا في جامعة بروكسل الحرة، ثم تابع أبحاثه التطبيقية في فرنسا، حيث اكتسب شهرة عالمية بفضل جرأته في النزول إلى فوهات البراكين النشطة وتصويرها ميدانيًا.

عرف تازيف بقدرته على الجمع بين المنهج العلمي الدقيق وروح المغامرة الاستكشافية، كما ساهم في تطوير علم الڤولكانولوجيا التطبيقية (volcanology appliquée)، إذ ربط بين الظواهر البركانية والنشاط التكتوني للأرض.

نشر خلال مسيرته عددًا من المؤلفات المهمة التي تمزج بين البحث العلمي والسرد الميداني، من أبرزها:

Le Gouffre de la Pierre Saint-Martin (غور سانت مارتن) – 1953م.

Cratères en feu (فوهات من نار) – 1951م.

Les Rendez-vous du diable (مواعيد مع الشيطان) – 1972م.

In the Red Sea with Calypso (في البحر الأحمر مع كاليبسّو) – 1953م، وهو الكتاب الذي وردت منه النصوص المترجمة هنا.

شارك تازيف في عدد من البعثات العلمية الدولية، من أبرزها بعثته إلى البحر الأحمر على متن السفينة البحثية "كاليبسّو" بقيادة المستكشف الفرنسي جاك إيف كوستو. وقد ركّز في هذه الرحلة على دراسة التركيب الجيولوجي لقاع البحر الأحمر ونشاطه البركاني الحديث، إضافةً إلى ملاحظات ميدانية حول سواحل الحجاز، ولا سيما منطقة الليث وجبالها، بوصفها إحدى النقاط الدالة على الانفتاح الجيولوجي للبحر الأحمر.
نال تازيف لاحقًا مناصب علمية مرموقة، منها مستشار علمي للحكومة الفرنسية لشؤون الكوارث الطبيعية، وساهم في وضع أسس علم إدارة المخاطر البركانية. تميّزت أعماله بأسلوب يجمع بين الدقة الأكاديمية والعمق الإنساني، مما جعله أحد أبرز الأسماء في تاريخ العلوم الطبيعية المعاصرة.

جزيرة جبل الليث (ابو اللت)

بداية النص من الفصل الخامس

وصلنا الى جدة نحو المساء من غير أن نستعين بمرشد ملاحي، بعد أن قمنا — على طريقة كوستو — "بالتعرّج بين الشعاب المرجانية الهائلة المتوازية". لكنّ جدّة لم تستقبلنا بحفاوة كبيرة. فهناك جدالات عند الجمارك، ومداولات لا تنتهي كان دوباس يستعرض خلالها بصبر كل ما يعرفه من اللغة العربية، وانتهى الأمر برفض السماح لنا بالنزول إلى البر قبل إجراء الفحص الطبي في صباح اليوم التالي. كل تلك المضايقات الصغيرة لم تكن إلا عقابًا على احتقارنا لخدمات المرشد البحري.

جدّة هي ميناء مكّة، المدينة المقدّسة في الإسلام. وهي مدينة تجارية وقنصلية ودبلوماسية في آنٍ واحد، بل المدينة الوحيدة في مملكة العرب التي يُسمح فيها — أحيانًا — لغير المسلمين بالإقامة. أما العاصمة الرياض، فهي تقع في الداخل البعيد، في قلب صحراء نَجْد. هناك يعيش المحارب الشجاع الذي يُمسك بقبضته قبائل البدو الرحّل الجامحة، ابن سعود عبد العزيز. وتُعدّ جدّة البوّابة الضيّقة إلى مملكته المترامية بين الرمال والصخور.

ترسو السفن على بُعد بضعة أميال من جدّة، في ممرّ بحري تحيط به الشعاب المرجانية المتشابكة. ومن الميناء، تبدو المدينة البيضاء الممتدّة على الساحل المنخفض، بمآذنها وبيوتها العتيقة الشاهقة، صورةً لا تخيّب آمال المسافر الحالم؛ فهي بحقّ البوّابة إلى الشرق الأسطوري الذي تتحدّث عنه الحكايات.

ولكن للأسف! ما إن سُمِح لنا بالنزول واقتربنا من المدينة الأسطورية، حتى تلاشت ألف ليلة وليلة من الذاكرة، مطرودةً بكتل الأبنية الحديثة، والبنايات الإسمنتية القبيحة، والسيارات الأمريكية الضخمة، إضافةً إلى ذلك الهوس المهيمن بالإعلانات التجارية. فعلى الرغم من الحروف العربية، كان من السهل للغاية التعرّف إلى اللافتات الإعلانية لعلامة كوكاكولا، التي تملأ الأرجاء. وسط هذا الحداثة الطفيلية المتفشّية في خضم هذا الطابع التجاري القبيح، بدت المساكن القديمة، بشرفاتها الخشبية المشبكة (المشربيات) وبأبوابها الثقيلة المرصعة بالمسامير، كشهودٍ مستسلمين لعالمٍ كان يعرف المجد في زمنٍ مضى.

كانت الجزيرة العربية، أرض الإسلام المقدسة، مغلقةً على الدوام في وجه الكفار. وكان ما يجري من تجارةٍ معهم لا يتجاوز القليل، مقتصرًا على المدن الساحلية مثل ينبع وجدّة والقنفذة. أمّا الداخل فمجالٌ فسيح من الصحراء الممتدة، التي يبّسها لهيب الشمس. هنا وهناك واحات قليلة، وعيون ماء متناثرة، وشجيرات شوكية ترعى عليها الإبل. وفي هذه الفيافي الشاسعة، تتيه القبائل الرحّل بلا نهاية في فضاءٍ لا حدّ له.

بعد الحرب العالمية الأولى، اكتُشف النفط عند حدود الخليج الفارسي، وهذه الحقول التي تُشغّلها اليوم الشركة الأمريكية أرامكو تدرّ إيرادات سنوية تبلغ خمسمائة مليون دولار من العائدات. ومن هنا يمكن

تفسير السيارات والثلاجات وأجهزة الراديو التي يملكها شيوخ جدّة، وكل ما رافقها من مظاهر القبح التجاري المجلوب من الغرب. ومع ذلك، فإن الملك ابن سعود نفسه ظلّ صارمًا في رفضه لأي تنازل؛ ولهذا فإن قبح الغرب لم يلوث إلا جدّة وحدها، تلك التي يمكن اعتبارها "خُرّاجًا ضروريًا" يتصاعد منه صديد المدينة ليريح باقي الجسد من العدوى. فما إن تغادرها، وتترك وراءك طرق الأسفلت وأزقة الغبار، وآخر لوحة دعائية مبتذلة، وآخر مضخة وقود، حتى تجد نفسك مباشرةً في طهارة الصحراء.

قمنا برحلة قصيرة إلى هناك برفقة القنصل الفرنسي برنار لوساك، رجل عريض المنكبين، ودود ومتحمس للمنطقة، متعطش للرؤية والتعلّم. أخذنا في سيارته لاندروفر عبر طريق المدينة المنورة، على امتداد السهل المنخفض المحاذي للبحر. لكننا ما لبثنا أن انحرفنا شرقًا، متتبعين مجرى وادٍ جاف، لتبدأ بعد ذلك تسعون ميلاً من الروعة بين تلال الغرانيت الأحمر المنتصبة من ذهب الرمال اللامتناهي، وبين جروف البازلت الأسود الشاهقة التي سرنا بمحاذاتها أميالاً تلو أميال. مررنا بقوافل تمضي ببطءٍ واتزان، كأن الزمن لا يعني لها شيئًا؛ سلاسل من الجمال الهزيلة الأطراف، الصبورة، المطيعة، تمخر عباب الفراغ في صمت. وأحيانًا، كنا نجد واحةً تظهر فجأةً كأنها معجزة خضراء نضرة.

وصلنا حتى مشارف الحدّ الفاصل الذي يمنع الكفار بشدّة من الاقتراب من مكة المكرمة. وعلى الطريق المعبّد حديثًا الذي يصل جدّة بالمدينة المقدسة، انتصبت لوحات إعلانية ضخمة، كُتبت باللغتين العربية والإنجليزية، كانت اللوحات الضخمة تعلن بنصوصها العربية والإنجليزية شروط الحظر المفروضة على غير المسلمين. ومع ذلك، فبعيدًا عن الطريق نفسه، لا يوجد ما يُشير إلى أن المسافر قد اقترب أكثر من اللازم من الأسوار المحرّمة. لكن القنصل لوساك كان يدرك أن هذا لن يُعدّ عذرًا مقبولًا في نظر المتشددين، لذا انحرفنا نحو الجنوب، ثم إلى الغرب، قبل أن نغوص قليلًا في المنطقة الخطرة.
لقد كان لزامًا علينا الحصول على إذنٍ رسمي لهذه الرحلة. وكان الأمير فيصل، وزير الخارجية وابن الملك، قد منح هذا الإذن لـ كوستو. كما طلب كوستو أيضًا ترخيصًا لي يسمح لي بالتوغّل في الداخل لمسافة تقارب مئةٍ وعشرين ميلًا، ولكن إلى الجنوب أكثر، على مستوى خط العرض العشرين تقريبًا. كنت أرغب في الوصول إلى سلسلة الجبال المنخفضة الممتدة على موازاة البحر، والتي يُحتمل أنها ناتجة عن صدعٍ في القشرة الأرضية. وقد نال كوستو الموافقة بسهولة، وكنت في غاية السرور بما ينتظرني من أسبوعين من الاستكشاف في تلك المناطق المجهولة.

لقد كانت الموافقات على كلا الطلبين سريعة وسهلة إلى درجة جعلتني أظنّ أن الملايين المتدفقة إلى هذا البلد من عائدات النفط، ومن قيمته الاستراتيجية، قد أضعفت شيئًا من تحفّظه الديني. لكنني ما لبثت أن اكتشفت خطأي في ذلك الظن لاحقًا.

عند الساعة الثامنة صباحًا، وفي نسيمٍ شماليٍّ غربيٍّ منعش، كان الطقس لطيفًا فوق بحرٍ بنفسجيّ الموج. أبحرنا نحو الجنوب، باتجاه مصبّ فَرْسَان المرجاني الهائل، الذي يمتد أكثر من ثلاثمائة ميل طولًا وستين ميلًا عرضًا، من مشارف باب المندب إلى مقربةٍ من جدّة.

تُظهر الخرائط في تلك المنطقة عددًا لا يُحصى من الشعاب المرجانية، وأتولاتٍ وجزرٍ رمليةٍ متناثرة؛ بعضها واضح للعيان، وبعضها خفيّ، متجمّعة في عناقيد متفاوتة الكثافة، تفصل بينها ممرات مائية عميقة على نحوٍ مدهش: مئة، مئتا قامة، أو أكثر. وفي مواضع من الخريطة، تنتشر بقع بيضاء واسعة وسط دوّامة الرموز والدوائر الرمادية الدقيقة، وقد كُتبت عليها كلمات تحذيرية مثل:
"خطرٌ شديد"، أو "شعاب خطرة: مياه عميقة لا ممرّ صالحًا للملاحة بينها"، أو "منطقة غير ممسوحة".

كنّا في تلك اللحظة نبحر في قلب واحدةٍ من تلك البقع البيضاء، وكان يبدو غريبًا بعض الشيء أن لا نرى حولنا سوى زرقة البحر الكثيفة بلا أيّ علامةٍ من علامات الخطر...

وفجأةً دوّى الصوت من على السطح:

"شِعابٌ أمامنا!"
من على الجسر، لم نكن قد لمحنا بعدُ الخطّ الأخضر الذي أشار إليه المراقب، لكنه ما لبث أن ظهر بوضوح، فقمنا بمراوغته على سرعةٍ منخفضة، إذ أراد كوستو أن يواصل عمل اليوم السابق: الاستطلاع والتفجير التجريبي.
ومرةً أخرى، أثناء بحثنا عن مرسى، كدنا نلامس الحافة ـــ ملامسة مرعبة بالفعل. وعندما انحنيت فوق السياج، استطعت أن أميّز، كأنها على مرمى اليد، رؤوس الشعاب المرجانية المتفرّعة أو الكروية، على عمق أقدام قليلة في مياهٍ بلّوريةٍ صافيةٍ كأنها الزجاج.

هذه المرة، أرسلت "كاليبسو" أربعة سبّاحين إلى البحر، ترافقهم القارب ذو المحرك كحارسٍ ميداني. ومن سارية المراقبة بدا المشهد مضحكًا حقًّا: أربعة رجال ممدّدين على وجوههم، متراصّين جنبًا إلى جنب، بأقدامٍ ضخمةٍ يكسوها المطاط الأزرق، وأردافهم تلامس السطح بالكاد، وكلٌّ منهم يحدّق عبر أنبوب تنفّسه العمودي نحو الأعماق، كما لو كان يتطلّع في قاع بئر.

وفجأة دوّى صوت التحذير من فوق الجسر:

"على الموجة! على الموجة! قرش!"

كان دي ووترز قد رآه من الجسر أولًا ـــ مخلوقًا رشيقًا وقويّ البنية، يطوف حول "كاليبسو". رفعنا أصواتنا نحن أيضًا محذّرين السباحين، لكنهم لم يسمعوا شيئًا. واصل القرش دورانه حول السفينة، على مسافة غير مريحة أبدًا، وخشينا أن لا يكون وحده. هممنا بإنزال الزورق الصغير لننطلق لتحذير رفاقنا، حين رأيناهم فجأةً يستديرون نصف دورةٍ كاملة، وينطلقون بأقصى سرعة نحو القارب المرافق. وصلوا إليه في ثوانٍ معدودة، وتنفسنا الصعداء حين رأيناهم يمسكون بحافته الخشبية ويتسلقون إلى برّ الأمان.

كان السبب في تلك العودة المذعورة قرشًا ثانيًا اندفع نحوهم، متجهًا تحديدًا إلى كوستو. فعلق هذا الأخير مبتسمًا بسخرية:

> "ذلك يثبت قلّة خبرة المخلوق؛ فما كان ليجد فيّ شيئًا سوى الجلد والعظم!"

اقترب القرش من السباحين حتى صار على مسافة أقدام قليلة، ثم استدار فجأة في منتصف اندفاعه واختفى مسرعًا نحو البعيد. وقد أكّد لنا هذا المشهد ما كنا نعلمه من قبل: أن هذه المفترسات لا تهاجم إلا بعد أن تدور عدة مرات حول فريستها. لكن قلوبنا، رغم كل ذلك، كانت تخفق بعنف لا يوصف!

لم نكد نستأنف الإبحار نحو الجنوب سوى خمس دقائق، نسير ببطءٍ حذر، حتى دوّى فجأةً اصطدام ثقيل مكتوم هزّ السفينة من أقصاها إلى أقصاها. توقّف كل شيء. لقد علقنا بالشعاب المرجانية.

انحنيت فوق الحاجز، فرأيت على عمق ثمانية أقدام تحت السطح الشعاب التي أمسكت بنا. رفعت بصري، فإذا بالأفق كلّه حولنا لم يكن ثمة شيء سوى اتساعٍ أزرق أفقي لا نهاية له، صحراء من الماء، عزلة تامة حتى لتكاد تُرهق الحواس من فرط كمالها.

أنزلنا القارب المزود بالمحرّك إلى البحر مرة أخرى، وربطنا به حبل سحبٍ غليظًا لجرّ السفينة، وجعلنا قوته الضئيلة تحاول تخليصها. ولحسن الحظ كنّا في الجانب المحمي من الشعاب، ومع مساعدة الأمواج والريح القوية التي دفعتنا في الاتجاه المطلوب، تمكّنا من الانفلات شيئًا فشيئًا. ولأن سرعتنا كانت بطيئة عند الاصطدام، لم نتضرر كثيرًا، ولم نلبث أن شعرنا بالحركة مجددًا، نطفو وننقاد مع الموج.
كان ذلك إحساسًا رائعًا على نحوٍ لا يوصف. دوّن ساو بهدوء في سجل الملاحة:

> "roh.34 — احتكاك طفيف بالشعاب المرجانية."

تابعنا الإبحار بحذر، مع مراقبة مزدوجة على الجسر، متجهين نحو جزيرة جبل الليث

إن جبل الليث جزيرة صغيرة من مجموعة جزر فرسان، يشير إليها دليل الملاحة البحري — كما يثبتها أيضًا الخرائط الجيولوجية الألمانية — على أنها بركانية الأصل. وبذلك تكون البركان الشمالي الأقصى في البحر الأحمر، أي الأقرب إلى جدّة، ومن ثمّ الأقرب — من وجهة نظرنا — إلى فرصة التزوّد بالماء العذب والمؤن.

أما زملائي على متن السفينة، فقلّما كان يهمهم إن كانت الجزيرة بركانية أم لا، إذ لم تكن اهتماماتهم تتعدّى مياه البحر وأحيائه. لكن كوستو اختارها من أجلي أنا تحديدًا، إذ لم يكن يملك الوقت الكافي للذهاب إلى البراكين الجنوبية الأبعد، فرأى في أبو اللت (جبل الليث) خيارًا مناسبًا لأحظى على الأقل بـ نصيبي من الحمم.

حتى البركان الخامد لا يخلو من الأهمية، إذ يمكن — من خلال دراسة زمن خمود نشاطه — فهم علاقته بالظواهر التكتونية المحيطة، وبالتالي إدراك آلية عمل البركان، وأسباب نشأته، ثم موته. وفي

هذه العلوم الحديثة التي لا يتجاوز عمرها قرنًا واحدًا، لا يزال الجهل يكتنف الكثير، حتى إن أبسط الملاحظات الأصلية تكتسب قيمة علمية في سبيل حلّ هذا اللغز العظيم.

وبينما كنّا نبحر، ظهر مخروط صغير مقطوع الرأس في الأفق، أشبه بحبّة أرزّ دقيقة: إنها جزيرة الليث!. ومع اقترابنا، بدأت تتبدّى على جانبي المخروط سواحل منخفضة، لا تكاد ترتفع عن سطح البحر. وسرعان ما انكشفت الجزيرة بأكملها أمامنا، لكن من المستحيل تقدير حجمها، إذ لم يكن هناك ما يصلح للمقارنة: لا نخلة، ولا أثرٌ لبناءٍ بشري واحد.

اتّضح أنها مخروطان مقطوعان لا واحد فقط، ينهضان فوق شاطئٍ منخفضٍ ممتدّ يكاد يلامس الماء. ومع اقترابنا أكثر، ظهرت الهالة الزمردية التي تحيط بالجزيرة — حافةٌ من الشعاب المرجانية المتألقة بدأت الهالة الزمردية التي تحيط بالجزيرة تظهر بوضوحٍ متزايد. وفوقنا، راحت طيور ضخمة — تشبه البطّ البري — تحلّق في الجو، تُظهر أجنحتها البيضاء العريضة من الداخل، وأجسامها السوداء من الأسفل. كانت تدور فوق "كاليبسو"، تميل برؤوسها يمينًا ويسارًا بفضولٍ ظاهر، وتحدّق بنا باهتمامٍ شديد.

قال شيربونييه:

> "تُدعى هذه الطيور البوبيز."

فقال أحدنا متعجبًا:

> "بوبيز؟"

فأجابه مبتسمًا:

> "لا، ليس بالمعنى الذي خطر ببالك، بل هذا هو اسمها العلمي فعلاً."

صرنا الآن قريبين جدًا من الجزيرة، وبدأ لون المخروطين يثير قلقي؛ إذ كان مطابقًا تمامًا للصخور المرجانية في الأسفل، مما أوحى لي أن أصلها ليس بركانيًا. ومع ذلك لم أشأ أن أفقد الأمل، فصرت أراقب الصخور بقلقٍ من خلال المنظار، أفتش فيها عن أي أثرٍ — ولو ضئيل — يدلّ على طبيعةٍ نارية.

أبحرنا بمحاذاة الشعاب التي تطوّق الجزيرة كإكليلٍ أخضر بديع، يمتد عرضه ثلاثمئة إلى أربعمئة ياردة. ثم وجّه كوستو السفينة نحو مياهٍ أقل عمقًا، بعد أن شقّ طريقه عبر ممرّ ضيّق بين الأمواج البيضاء المتكسّرة.

ولقرابة ساعة كاملة، راح كوستو يمارس لعبته الجديدة المفضلة: الإبحار وسط متاهةٍ لم يكن ليجرؤ أحدٌ غيره على خوضها بسفينةٍ حقيقية.
كنت لا أسأل نفسي عمّا إذا كان التقدّم ممكنًا ـــ إذ كانت كل حركة تصدر عنه في غاية الثقة ـــ بل كيف سنتمكن لاحقًا من الخروج من هذه المتاهة، إذ بدا أن معظم الممرات لا تُبحر إلا في اتجاهٍ واحد دون عودة.

وأخيرًا، على بُعد مئتي ياردة من الشاطئ، أُسقط المرساة في عمق إحدى عشرة قامة.

كان المخروط الأكبر الآن أمامنا مباشرة، ولم أعد أستطيع أن أخدع نفسي أكثر: فكل ما حولنا صخور مرجانية قديمة متحجّرة، رفعتها تغيّرات مستوى البحر إلى السطح.
لقد اتخذ هذان المخروطان شكلهما بالمصادفة البحتة، الأمر الذي أوقع رسّامي الخرائط ومحرّري دليل الملاحة في الخطأ حين ظنّوهما بركانين.

كما أفادنا أولئك المحررون أيضًا بأن الجزيرة ـــ التي يبلغ طولها نحو ميلين أو ثلاثة، وعرضها نصف ميل تقريبًا ـــ قاحلة ولا ماء فيها. ولهذا بدا أننا سنضطر إلى حمل كل ما نحتاجه من ماءٍ للشرب مع فريق النزول الذي سيقيم فيها.
لكن، وعلى الرغم من الحماسة الجامحة التي استولت على علماء الأحياء بعد أن صار هدفهم أمام أنظارهم أخيرًا، كان من الضروري أولًا أن نبحث عن مرسىٍ آخر قبل أن يتمكّن الفريق من مغادرة السفينة؛ إذ لم يكن ممكنًا أن تظل "كاليبسو" تتسلّى بالالتفاف بين رؤوس الشعاب المرجانية كما كانت تفعل آنفًا، في كل مرة تأتي فيها لتزويد القاعدة بالامدادات.
وفوق ذلك، لم نكن قد خرجنا بعد من متاهة الشعاب التي أحاطت بنا.
ثم إن طاقم السفينة كان أمامه مهامّ أخرى أثناء إقامة علماء الطبيعة على اليابسة:
استكشاف الجزء الشمالي من ضفة فرسان،
وإجراء غوصات عميقة لدراسة الحافات المرجانية المختلفة،
ونقل الأدوات الجيولوجية إلى الساحل بعد أسبوعين.
وفي نهاية كل رحلة، كان لابد أن تجد السفينة مكانًا آمنًا وواسعًا للرسوّ، محميًّا من العواصف، ويسمح لها بحرية الحركة.

لهذا قررنا أن نبحر حول الجزيرة لنفحص المواقع التي قد تصلح لذلك.
لكن الرياح ـــ ويا لسوء الحظ ـــ كانت قد اشتدّت أثناء توقفنا، حتى أصبح من الخطير للغاية أن نحاول المناورة بين الشعاب المرجانية مجددًا.
وهكذا ضاعت منا أول يومٍ آخر من أيام العمل، غير أن له عزاءً لا يُنكر:
ليلة من الراحة الكاملة، والسفينة راسية في هدوءٍ تام، لا حاجة فيها إلى نوبات حراسة أو يقظةٍ متوترة.

وفي صباح اليوم التالي خمدت الرياح،

وخلال نصف ساعة فقط ـــ بمهارةٍ مدهشة في الملاحة، تخللتها أكثر من خمسين مناورة بين تغيير الاتجاه وسرعة المحرك ـــ استطاع القبطان أن يُخرجنا سالمين من البحيرة المرجانية دون أن تصيب السفينة خدش.

غير أن بحثنا لم يثمر شيئًا:
فلا وجود لمرسى صالح حول جزيرة أبو اللتّ.(الليث)
واضطررنا إلى اختيار مكانٍ خارج نطاق الشعاب،
في الجهة المحمية منها نسبيًا،
غير أنه لم يكن يوفر حماية كافية،
إلا أنه يتمتع بعمقٍ ملائم لرسوّ السفينة.

وقد تبيّن أن هذا المرسى جيدٌ إلى حدٍ معقول ما دامت الرياح الشمالية الغربية سائدة،
لكن في الأيام التي تهبّ فيها رياح الشَّرْق القوية، كان لابدّ من رفع المرساة،
إذ لا يوجد على الجانب الآخر من الجزيرة أي خليجٍ صالحٍ للرسوّ.
وفي تلك الأوقات كانت "كاليبسو" تُضطر إلى الإبحار في بحرٍ متلاطمٍ أحيانًا لمدة أربعٍ وعشرين ساعة متواصلة.

وحين كانت الرياح الشمالية الغربية تهبّ بقوة،
وكانت السفينة مثبتة على مرساتين متينتين،
كانت فرص انجرافها نحو الشعاب ضئيلة جدًا،
لكنها كانت تضطر لتحمّل تموّجات البحر الأحمر القصيرة والعنيفة.
ومن موقعنا الثابت في المخيم المقام على اليابسة،
كنّا نراها تتمايل من جانبٍ إلى آخر،
أحيانًا بزاويةٍ تصل إلى ستين درجة كاملة.
وفي تلك اللحظات، لم نكن نحسد رفاقنا الذين ظلّوا على متنها،
فما علينا إلا أن نتذكر رحلاتنا العاصفة السابقة لنتخيل ما يعانونه من مشقة،
وما يطلقونه من الشتائم الصاخبة في وجه البحر وموجاته . كانوا ـــ بلا شك ـــ يتناولون طعامهم ممزوجًا بنكهة البحر والعواصف؛
إذ كان طباخ السفينة، هانِن، رجلًا ذا وجهٍ شاحب وشَعرٍ أشقر حتى ليبدو أبيضَ تمامًا، شخصيةً فريدة في نوعها.
فهو، مهما اشتدت العواصف أو دوار البحر، لا يتخلّى عن مهمته قط، بل يُعد وجباته دائمًا بإصرارٍ وهدوءٍ غريب.
ومن أغرب ما كان يسرّه: أن يُعدَّ حساءً رقيقًا جدًا كلما اشتد تأرجح السفينة في البحر، وكأنه يتعمّد أن يضاعف من معاناة الركّاب.
فهذا الطبق ـــ في نظره ـــ هو وجبة العواصف العظمى.
كان يطل من فتحة المطبخ الضيقة، بعينين زرقاوين تلمعان بمكر،

ويُعلن بصوتٍ عالٍ عن سروره العظيم وهو يشاهد الطاقم التعيس يحاول عبثًا تناول طعامه وسط السائل الحارق المتطاير من الأطباق، المتساقط على رُكَبهم كالمطر.

حتى عندما كان البحارة يثبتون الأواني الخشبية الصغيرة التي تُغرز في صفوفٍ من الفتحات على المائدة لتثبيت الأطباق أثناء الطقس العاصف،
لم يكن ذلك يجدي شيئًا أمام جنون المحتويات المتمايلة التي تندفع في كل اتجاه.

وفي مساءٍ عاصفٍ آخر، عند موعد العشاء،
انتظرتُ لحظة هدوءٍ نسبي قبل أن أفتح باب الميس الأيمن،
خشية أن تقتحمني إحدى تلك الأمواج العاتية التي يُطلق عليها البحارة اسم baleines — أي "الحيتان".
غير أنني خلال تلك الوقفة، تلقّيت ضربة موجتين متتاليتين، فغُمرتُ حتى العظم،
ولم أُمهل نفسي حتى الثالثة؛ فتحت الباب على عجل،
ووَطِئتُ أرضية الميس — المكسوّة بالمشمع — المغمورة بالحساء، بحذائي المطاطي.

وفي تلك اللحظة بالذات انحرفت السفينة نحو الميمنة،
فانزلقت قدمي فجأة،
وتدحرجتُ على ظهري بطول عشرين قدمًا عبر القاعة،
إحدى رجليّ ما تزال مرفوعة في الهواء.
وأنا أندفع كقذيفةٍ طوربيدية،
ارتطمتُ بـ بيلتران، الذي كان يرفع صحنه إلى فمه ليشرب حساءه من دون ملعقة، متفاديًا اهتزاز السفينة.

فسقط عليّ كلاعِبٍ في مباراة ركبي،
وصحنه لا يزال شبه ممتلئ،
وفي اللحظة نفسها مالت السفينة إلى الجانب الآخر،
فانطلقنا معًا مجددًا نحو الطرف المقابل،
نجرّ معنا ساؤوت الذي حاول بيلتران التشبث به،
وكذلك كرسي ساؤوت وكرسي بيلتران، والأطباق، والمعالق، وكل ما كان على المائدة.

لم نكد نرتطم بأنابيب الجدار عند نهاية القاعة حتى قذفتنا السفينة مجددًا إلى الاتجاه المعاكس،
من دون أن نتمكن لحظة واحدة من استعادة توازننا فوق ذلك الأرضية الزلقة المكسوة بالشعرية المبعثرة،
التي تحولت إلى ساحة تزلج حقيقية.

وحين خرجت "كاليبسو" أخيرًا من تلك المنطقة المليئة بـ "الحيتان" البحرية الصغيرة التي كانت قد انزلقت إليها عن غير قصد،
تمكّنا من الوقوف على أقدامنا بصعوبة،
مكدّمين، مجروحين، ومنتفخي الرؤوس،
لكننا كنا نعاني أكثر من نوبات الضحك التي استبدّت بنا ـــ
ضحك لا يُقاوم، ولا شك أنه زاد من آلامنا أكثر مما خففها.
كان الشكّ بادياً على وجوه المتفرّجين الجالسين بأمان على المقعد الثابت في الجهة المقابلة من الطاولة.
ولهذا السبب، كنا ـــ من قاعدتنا في الجزيرة ـــ نشعر بالأسى تجاه رفاقنا عندما رأينا القارب يتراقص على الموج المتلاطم عند طرف سلاسله المربوطة بالمرساة، بينما كنّا نهنّئ أنفسنا على أننا، في الوقت الحاضر، عدنا إلى أرضٍ صلبةٍ ثابتة.
وبعد أن اخترنا موقع الرسوّ، لم نغادر إلى اليابسة مباشرة، بل واصلنا الإبحار نحو الساحل العربي الذي يبعد قرابة عشرين ميلاً. ووفقًا للخريطة، كان هناك قرية تُدعى الليث، وكان قبطان سفينتنا حريصًا على أداء زيارة مجاملة لأمير تلك المنطقة، إذ إن الجزيرة كانت جزءًا من إمارته، وكذلك المنطقة الجبلية في الداخل التي كنا نخطّط لاحقًا للقيام فيها برحلة جيولوجية طويلة المدى.
توقفنا في خليج صغير يبعد بضع مئات من الأمتار عن الشاطئ المنخفض الذي تعلوه أنقاض حصنٍ يعود إلى عهد الاحتلال التركي، وهناك غادرت بعثتنا الدبلوماسية على متن القارب الصغير، وكانت تضم القبطان والطبيب والملازم دوباس، المترجم.
ومن بعيد كانت الليث تبدو لنا، وأبرز ما فيها قلعةٌ تعود إلى العصور الوسطى، تنتصب وسط بقعة خضراء من غابة نخيل وارفة.
وطئت أقدام رفاقنا الرمال الناعمة التي تحدّ الخليج، وبعد قليل رأينا سيارةً أميركية الصنع ـــ من طراز حديث نسبيًا ـــ تظهر في الأفق، توقّفت أمامهم، ثم أقلّتهم وغابت بهم عن الأنظار.
وبعد ساعات، عادوا إلينا مفعمين بالسرور، مشيدين بالأمير وحسن ضيافته. فقد استقبلهم بحفاوةٍ شرقيةٍ أصيلة، وعرض عليهم كرم الضيافة بكل مظاهر البذخ والمودّة، ووعدهم بتقديم كلّ ما يحتاجون إليه من دعمٍ ومساعدةٍ دون قيدٍ أو شرط.
ثم عدنا إلى جزيرة الليث حيث بدأنا بإنزال الحمولة إلى الشاطئ. فبين مرسى السفينة عند الشعب المرجاني، والشاطئ الرملي في خليجٍ على شكل هلال، لم تتوقف رحلاتنا ذهابًا وإيابًا على متن زورقنا المصنوع من الألمنيوم ذي القاع المسطّح ـــ وهو قارب مثالي للإبحار في المياه الضحلة المليئة بالمرجان، إذ لا يتطلّب سوى بضع بوصات من العمق.
وفي غضون ثلاث أو أربع ساعات، كنا قد نقلنا إلى الشاطئ صناديق الجرار الزجاجية، وبراميل الفورمالين والكحول الخاصة بعلماء الأحياء، والخيام المطويّة، والأسِرّة الميدانية، والمؤن الغذائية، وأدوات الطهو، وخزانات المياه العذبة (وكان لدينا اثنان وعشرون جالونًا فقط، وهو مقدار محدود)، وجهاز الإرسال والاستقبال اللاسلكي، وأدوات المساحة الطبوغرافية، والعدد، والأسلحة، وغير ذلك من التجهيزات.
في رياحٍ عاصفة نصبنا الخيام على بُعد نحو اثني عشر ياردة من الشاطئ. كانت الخيام محميةً بسورٍ صغير تجاويفه منحوتة بطريقةٍ غريبة إلى الداخل، بفعل تآكل الصخر الجيري من جرّاء انحلاله بالماء.
وبعد أن تركتنا هناك، رفعت سفينة "كاليبسّو" مرساها وأبحرت متجهةً نحو جدة.

السرطانات (القباقب)

بينما كان رفاقي منهمكين في إعداد المختبرات الميدانية في الهواء الطلق أو تحت الخيام، مضيتُ متوغّلًا نحو داخل الجزيرة — هذه الصحراء الصغيرة الضائعة في قلب البحر. كانت بشرة وجهي تحترق تحت وهج الشمس التي بلغت قرابة كبد السماء، وقد بدا وكأنها تلفظ نَفَسًا من نار.

أخيرًا، كنتُ وحيدًا!
فعلى الرغم من الروح الطيبة الاستثنائية التي جمعتنا على ظهر السفينة، أدركتُ الآن — بعد ثلاثة أشهر من الحياة الجماعية — كم كنتُ أفتقد إحساس الحرية الفردية الذي لا يمكن للإنسان أن يختبره حقًّا بعيدًا عن اليابسة. فالسفينة، مهما اتّسعت، فضاءٌ محدود بحدود صارمة. مثل سجينٍ في زنزانة، لا تملك فيها إلا أن تدور في مساحة ضيقة، جيئةً وذهابًا.
وكان أطول مسارٍ يمكن قطعه على متن "كاليبسّو" لا يتجاوز تسع ياردات فقط — وهذا لا يُرضي جيولوجيًا بطبعه!

ما أروع أن تسير وحدك، وأن تشعر بأنك وحدك، وأن تملك أن تظل كذلك ما شئت.
كانت الأرض تحت قدميّ غير مستوية تمامًا، تتكوّن من فتات المرجان وبقايا الأصداف البحرية، إذ إن الجزيرة بأكملها ليست سوى حيدٍ مرجانيٍّ طفا إلى السطح.
قبل آلاف القرون، كانت هذه البقايا الهشّة كائناتٍ حيّة تعيش في بحرٍ ضحل. فتساءلت:
أي تغيّرٍ في مستوى المياه؟ وأيّ اندفاعٍ لقاع البحر هو الذي رفع هذا الحيد المرجاني فوق السطح، محوِّلًا جبل الحياة القديم إلى قفرٍ صخريٍّ ميت؟

كانت سطوح الجزيرة تبدو الآن سهلًا حجريًّا بسيطًا، مائلًا قليلًا من الجنوب إلى الشمال، لا يقطعه سوى بعض المنخفضات الطفيفة، ومحاطًا بمنحدرٍ صخريٍّ يتراوح ارتفاعه بين ستةٍ وتسعين قدمًا.
ولم يكن هناك أي أثرٍ للنشاط البركاني: لا غرانيت، ولا سليت، ولا أيٍّ من الصخور التي يهوى الجيولوجيون دراستها.
كلّ شيء هنا من المرجان.
كان ذلك مُخيبًا للآمال — لكن لا حيلة فيه.
فما زال أمامي عملٌ علميٌّ دقيق: إتمام خريطة الجزيرة، واستقراء تاريخها الجيولوجي عبر تعاقب مراحل الظهور والانغمار.

كانت على سطح الجزيرة شقوقٌ وكسورٌ صخرية ناجمة عن الاضطرابات الأرضية التي أثّرت في منطقة البحر الأحمر منذ عصورٍ جيولوجية سحيقة.

وكان عليَّ أولًا أن أُنشئ شبكةً من الأكوام الحجرية (المنارات الصخرية) لتكون نقاط مثلثاتٍ جيوديسية أستند إليها في مسح سطح الجزيرة باستخدام الثيودوليت (جهاز قياس الزوايا). وقد وجدتُ في ذلك متعةً غريبة، وأنا أرفع حجارة الأساس التي يزن الواحد منها ما يقارب مائة رطل.

وعلى الرغم من أن بشرتي قد اكتسبت سمرةً قوية من شمس الأسابيع الماضية، بدأت أشعر بوخزٍ حارقٍ أشبه بلسعة النار على جلدي، وخصوصًا في الجبهة والظهر والساقين — إحساس يشبه احتساء شرابٍ مغليٍّ في يومٍ شديد الصقيع.
ولم تكن تلك التجربة جديدة عليّ. فخلال رحلاتي في الكونغو، كنت أرتدي فقط سروالًا من الكتان وصندلاً، الأمر الذي أثار ذهول وامتعاض بعض الأوروبيين هناك.
كان بعضهم يهمس ساخرًا:

> «هذا لا يليق يا صاح، لا بد من الحفاظ على المظهر... تعلم، من أجل السكان الأصليين!»

أما من كانوا أكثر "انفتاحًا" فكان اعتراضهم ذا طابعٍ طبي: خطر ضربة الشمس، واحتمال لسعات الحشرات أو لدغات الأفاعي.

> «على الأقل ارتدِ قميصًا، أو غطاءً للرأس!»

وخلال أكثر من ثلاث سنوات في تلك الأدغال، لم أنجح في إقناع سوى رجلٍ واحدٍ فقط باتّباع أسلوبي؛ وقد فوجئ بالنتائج بعد خمسة عشر عامًا قضاها في إفريقيا.
لكن حتى هذا الرجل لم يجرؤ على خلع قميصه وغطاء رأسه إلا في الرحلات المنعزلة، بعيدًا عن النظرة الآمرة لزوجته.

في عشرين دقيقة فقط كنت قد عبرت الجزيرة من الشرق إلى الغرب، متجاوزًا رقعةً صغيرة من النباتات الجافة التي تعيش في البيئات القاحلة — ما يُعرف بالنباتات الزيروفيلية. كنا نُطلق عليها اسم الواحة، لكن ذلك الاسم بدا متكلفًا لوصف تلك الرقعة الخضراء الصغيرة التي لا تتجاوز فنجانًا مقلوبًا من الأرض.

سرتُ حول قاعدة النتوء المخروطي الذي يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثين ياردة، والذي منح جزيرة الليث سمعتها الزائفة بأنها جزيرة بركانية، حتى بلغتُ الشاطئ، حيث تبدأ السهول في الانحدار تدريجيًا نحو مستوى البحر.

كانت هناك شاطئٌ ضيق من الرمل الأبيض يفصل بين الحصى اللامع للجزيرة والمياه الخضراء للبحيرة الساحلية. ومن الأعماق الهادئة الضحلة كانت ترتفع مئاتُ القمم المرجانية الداكنة، كأنها رؤوس رجالٍ سود غارقين حتى أعناقهم.
كانت تلك قمم كتلٍ مرجانيةٍ ميتة، حفرتها التيارات والأحياء الدقيقة فكوّنت فيها كهوفًا صغيرةً وأحواضًا دقيقة، تغطيها طحالب ملتفة كأنها أكمام من الحياة تغلّف الموت.

وفوق بعض تلك "الرؤوس السوداء"، كانت تظهر بقع بيضاء واسعة من مخلفات الطيور، متباينة في الألوان والدرجات.
وقد كانت طيور البلشون (الواق)، والفلامنجو الوردي والأبيض، والنوارس من أكثر الزوار شيوعًا للبحيرة، تقف ساكنةً ساعاتٍ طويلة على جزرٍ صغيرةٍ منعزلة — لكلٍّ منها جزيرته الفردية الخاصة.

وبينما تابعت سيري بلغت أقصى الطرف الشمالي من الجزيرة ، حيث كانت تنتظرني مشاهد جديدة عند أقصى الطرف الشمالي من جزيرة الليث، كانت رؤوسٌ ثلاثٌ من اليابسة تمتد في شكل ألسنةٍ ضيّقة نحو البحر المفتوح، كأنها تحاول الانفصال عن الجزيرة، فلا يربطها بها إلا خيطٌ رفيع كالحبل السري.
وكانت هذه الرؤوس مأوى لأسرابٍ كثيفةٍ من طيور البحر:
البجع الوقور، وأبو ملعقة الأبيض ذو المنقار الأسود العريض المسطّح في نهايته، ونسور البحر، والنوارس، وأعداد وفيرة من طيورٍ بحريةٍ أخرى من فصيلة البوبي التي وجدناها في غاية الجمال والوداعة.

تبدو هذه الطيور شديدة الألفة قليلة الخوف من البشر.
وقد حدث مرة أن إحدى تلك الطيور هبطت إلى الأرض على بُعد خطوتين فقط من جاكي إرتو، وكانت جناحاها الداكنان يؤطّران صدرها الأبيض الناصع.
نظر إليها إرتو بجدٍّ بالغ، ثم قال مبتسمًا بالفرنسية:

> «كنتُ أظن أن صدري أبيض، يا سيدي، ولكن صدرك أبيضٌ ببياض مسحوق برسيل!»

على الرمال اللامعة لأحد الخلجان الصغيرة، على حافة بحيرةٍ كانت مياهها الخضراء المشرقة تتخللها لطخات بنفسجية من الشعاب الغارقة، رقد جثمان طائرٍ من تلك الطيور، وقد انتصبت إحدى جناحيه السوداوين نحو السماء.
وعلى جسده الذي لا يزال دافئًا، كانت السرطانات الرملية السريعة الأرجل — من نوع أوسيبود (Ocypode) — منهمكة في عملها، كتلةً نابضة من اللونين الوردي والأصفر.

اقتربتُ لألتقط صورةً للمشهد، فحدث فرارٌ جماعيٌّ هائجٌ نحو البحيرة.
جلستُ القرفصاء بالقرب من الطائر، وانتظرتُ عودة السرطانات.

إن سرطانات الأوسيبود كائناتٌ برّية في الأساس؛ فهي تحفر لنفسها جحورًا وأنفاقًا في الرمال، وتطرح الرمل الخارج منها بخطواتٍ سريعة من كلّاباتها، حتى تتكوّم التربة حول الفتحة في شكل أقماعٍ صغيرةٍ يتراوح ارتفاعها بين خمسةٍ وعشرة سنتيمترات، تبدو على نحوٍ مدهش كأنها أسقفُ من القشّ في قريةٍ ليليبوتيةٍ (مصغّرة).

وكحال جميع السرطانات، فهي تتغذّى على المواد العضوية الميتة التي تعثر عليها في البحر أو على اليابسة، فهي قمّامات الطبيعة، لا تترك شيئًا ليفسد أو يتحلل دون أن تزيله.

كانت سرطاناتي قد هربت إلى الماء، وما إن بلغتْه حتى توقّفت.
وراحت تنظر إليّ بعينيها المتحفزتين، كلٌّ منهما عند نهاية ساقٍ رفيعةٍ متحركة، فبدت كأنها غابة من المناظير الصغيرة (البيريسكوبات) تطفو فوق سطح الماء.

وبعد بضع دقائق بدأت الكائنات تخرج شيئًا فشيئًا، وتقترب من جديد.
ولم تكن عودتها في خطٍّ مستقيم ـــ بل كانت تتحرك جانبيًّا، تتوقف ثم تستأنف السير في الاتجاه المعاكس، تارةً من اليسار إلى اليمين، وتارةً من اليمين إلى اليسار.
وحين تركض، كانت تبدو كأنها تسير على أطراف أصابعها، مثل راقصات الباليه.
وحين تتوقف، كانت تثني ركبها الثمانية برشاقة وتضع بطونها برفقٍ على الرمل.

استغرق الأمر عشر دقائق كاملة قبل أن يجرؤ اثنان من أشجعها ـــ وكانا صلبين كبيرين بحجم الكفّ تقريبًا ـــ على العودة إلى قرب جسد الطائر.
كان أحدهما ورديّ اللون والآخر أصفرَ فاقعًا.
تقدّما بخطواتٍ متقطّعة، يتوقفان بين الفينة والأخرى لينظرا إليّ بعينيهما البيضاوين البيضاويتين، المترصدتين على سيقانٍ مرتفعةٍ متحرّكة.
وأخيرًا بلغا جثة طائر البوبي الميت، فتسلّقا التلّة الصغيرة من الريش الأسود الناعم والزغب الأبيض الطري، ثم غاصت كلّاباتهما القوية في جوف الطائر المفتوح. لا شكّ أنهما كانا سعيدين للغاية.

لكن زملاءهما الواقفين خلفهما ما زالوا مترددين.
كانوا مصطفّين في تشكيلٍ ممتدّ، يسيرون اثنين أو ثلاثة معًا، وبين كلٍّ منهم والآخر عرضُ سرطانٍ واحد فقط، يتقدّمون بمنتهى الحذر.
خطوات قليلة إلى اليمين ـــ توقف!
خطوات قليلة إلى اليسار ـــ توقف!

وبتناسقٍ عجيب، كانوا يترنّحون على أطراف أرجلهم كأنهم راقصو باليهٍ بحريّون؛ ثم معًا يطوون ركبهم الثمانية، ويُسدلون بطونهم بلُطفٍ على الرمل.

وعندما اقتربوا من هدفهم حتى صاروا على بضع خطواتٍ منه، اتخذوا تشكيل المروحة، في قوسٍ يبلغ نحو عشرين قدمًا.
استمرّ العرض الراقص؛ وكان المرء ليظن أن حركتهم جانبية خالصة، لكنهم ـــ بلا شك ـــ كانوا يقتربون شيئًا فشيئًا.
فالمروحة تقلّصت إلى اثني عشر قدمًا، ثم تسع، ثم ستّ...

والآن صارت أرجلهم تلامس أرجل بعضهم البعض، يزدادون تقاربًا وتلاحمًا، وهم يزحفون نحو جثة الطائر التي كان الرائدان المنهمكان قد غاصا فيها بحُمّى لا تهدأ.

وجدت نفسي وقد بدأت أشعر بودٍّ غريبٍ تجاه هذه السرطانات ـــ ذلك الشعور الذي لا بدّ أن يساور أي باحثٍ في لحظةٍ ما تجاه الكائن الذي يدرسه.
فقد مرّ في حياتي زمنٌ كنتُ أكنّ فيه عاطفةً مماثلة لخنفساء كولورادو، وأنا أعرف فتاةً شابة في المتحف تدرس العناكب وتُكنّ لها حبًّا رقيقًا على طريقتها.

وفي تلك الأثناء، كانت المروحة تتقلص شيئًا فشيئًا حتى انكمشت في كتلةٍ حيةٍ من اللونين الوردي والأصفر، بدت لي ـــ على جمالها ـــ مرعبةً على نحوٍ ما.
لقد بلغت هدفها، ثم غمرته تمامًا، ولم يعد يُسمع إلا صوت نقرٍ متواصلٍ من عشرات الفكوك العاملة.

وبعد نحو شهرين من ذلك المشهد، عشتُ تجربة مزعجة مع تلك السرطانات نفسها:
إذ كنتُ قد تُركتُ وحيدًا في جزيرةٍ صغيرة تُدعى "مرمر"، تبعد بضع عشرات من الأميال جنوب غرب جزيرة الليث بينما كانت "كاليبسّو" تمخر عباب البحر مبتعدةً، لتعود بعد أربعٍ وعشرين ساعة.

ولما أرخى الليل سدوله، نصبتُ خيمتي وهيّأت فراشي أمامها.
ولم يكن قرص الشمس قد غاب تمامًا خلف الأفق بعد، حتى لاحظتُ تجمّعًا لعددٍ من السرطانات الرملية (الأوسيبود) على هيئة تشكيلٍ نصف دائري، يبعد عني نحو أربع ياردات.

في تلك اللحظة كنتُ منهمكًا في إعداد النار، وقد بدأتُ أُهيّئ الحطب بعناية، أكسر الأغصان كنتُ أجمع الأغصان الصغيرة التي التقطتُها من كومة الشجيرات التي تغطي وسط الجزيرة، وأرتبها في شكل هرمي قبل أن أضع فوقها قطعًا أثقل من الخشب.
ويبدو أن هذه الحركات كانت كافية لإبقاء السرطانات على مسافةٍ آمنة، إذ ما إن فرغت من عملي وجلست ساكنًا أراقب، حتى بدأ زوّاري يقتربون مني.
ولم يكن اقترابهم في خطٍّ مستقيم، بطبيعة الحال ـــ بل على طريقة السرطانات:
خطوات صغيرة إلى اليسار، ثم إلى اليمين، توقّف؛ نظرة خاطفة حول المكان، ثم تكرار للحركة ذاتها من جديد.

كان الخط الأمامي يضيق شيئًا فشيئًا، حتى لم يعد بيني وبين الصف الأول أكثر من ياردةٍ واحدة، بينما كانت جحافل أخرى من السرطانات تدفع من الخلف في صفوف متتابعة.
في إيقاعهم المتقطّع كانوا يتقدّمون بثباتٍ بطيء، وعُيونهم بارزة على رؤوس السيقان المتحرّكة، تلمع في الضوء الخافت.

قمتُ بحركةٍ مفاجئة، فاندلع بينهم ذعرٌ قصير، لكنهم أعادوا تنظيم صفوفهم من جديد، على هيئة قوسٍ نصف دائري يبعد عني نحو اثنتي عشرة قدمًا.

وبعد تردّدٍ قصير، استأنفوا رقصهم الصامت ذا المفاصل العجيبة.
لم تعد حركتي التالية تُرعبهم كما في البداية؛ كان أقصى ما يفعلونه توقفًا حذرًا قبل أن يستأنفوا تقدّمهم المنتظم.
وفجأة، وقفتُ على قدميّ، ولم أكن قد خطوت خطوتين حتى هرعت الجموع كلها إلى مياه البحيرة الهادئة.

حلّ الليل.
ولم تمضِ خمس دقائق على جلوسي حتى بدأ ذلك الدائرة الغريبة تضيق عليّ مجددًا.
ورغم اشتداد الظلام، كنت لا أزال أرى الكتلة الباهتة التي تتحرك فوق الرمل المضيء.
وما إن نهضتُ حتى هربت السرطانات، لكنها توقفت قبل أن تبلغ الشاطئ، وفي المرة التالية لم تتراجع إلا حين تقدّمتُ نحوها مباشرة لأجبرها على التفرّق.
لقد كانت تعتاد على وجود الإنسان شيئًا فشيئًا — غير أن هذا الدليل الواضح على ذكائها لم يكن مما يُسعدني كثيرًا.

قلت في نفسي:

> "لا يمكن أن يستمر هذا طوال الليل. فكرة السهر بعد يومٍ مرهقٍ كهذا لا تقلّ سوءًا عن فكرة أن تُقضم قدماي وأنا نائم.
أيها المخلوقات البغيضة، أما زلتم لا تعرفون النوم؟ لعلّ النار تردعكم؛ فقد كانت كفيلة بردّ الفهود من قبل!"

كانت الأخشاب التي جففها شمس الأسابيع الطويلة تشتعل بضياءٍ ساطعٍ متوهّج.
فتراجعت السرطانات قليلًا إلى الخلف.
كان لهيبًا رائعًا متلألئًا بلا دخان، يتغذّى على ألواحٍ وخشبٍ جرفته الأمواج إلى الشاطئ.
وبعد نهارٍ من السكون المطلق، هبّت نسمةٌ شرقيةٌ خفيفة، والسماء الزرقاء الداكنة تزدان بالنجوم المتلألئة.
ولم تقترب السرطانات أكثر، إذ كانت ألسنة اللهب المتوثّبة كافيةً لردعها.

وعندما خفّ التوتر العصبي الذي كان يشدّ أعصابي، أدركت فجأة مدى الانفعال الذي بلغته أثناء الحصار.
كنت أعلم تمامًا أن تلك الكائنات غير مؤذية، وأنها تتغذّى فقط على اللحم الميت — ومع ذلك تمدّدتُ فوق قماشة سريري الميداني.
وعلى أحد جانبيّ كومة الوقود، وعلى الجانب الآخر النار المتقدة.
كنت أمدّها بالحطب بين الحين والآخر، فيما تلك الجموع الشاحبة تظل ساكنة، تراقبني بمئات العيون الجامدة.

أنا لا أطيق أن أبقى على أعصابي.
بدأت موجةٌ غريبة من الغضب تتصاعد في داخلي.
قلت غاضبًا:
> "أيها الحشرات القذرة! ألا يمكنكم أن تتركوني بسلام؟!"

ثم نهضتُ وأمسكتُ قطعةً كبيرة من المرجان، ورميتها بكل قوتي نحو الغازين الصامتين.
وفي غضون ثوانٍ معدودة، كانت جميعها قد ولّت إلى البحر، ولم يبقَ على الرمل سوى اثنين جريحين، يُلوّحان بأرجلهما العديدة في حركةٍ يائسةٍ هستيرية.

جمعتُ بعد ذلك ذخيرةً جديدة من المرجان وعدتُ إلى فراشي، أراقب من طرف عينيّ الجريحين وهما ما زالا يتخبطان في الرمل.
وبعد لحظات قليلة، عادت السرطانات التي كانت قد فزعت من قبل، كأنها نسيت تمامًا هلعها السابق.
قلت في نفسي:

> "ترى، هل سيحملون جرحاهم إلى مأوى؟"

لكنني سرعان ما رأيت أن الحشد المتدافع حولهما لم يعتبر الجريحين إلا وجبةً قدرية جاءت في وقتها.
فما إن توقّف تلوّح الأرجل للحظةٍ واحدة، حتى مدّ أقرب السرطانات كُلاباته المشدودة محاولًا انتزاع قطعةٍ من أحد رفاقه العاجزين.
ومع ذلك، كان الزوج المسكين يواصل خفق أطرافه بجنونٍ دفاعًا عن نفسه، فيُبقي المفترسين على مسافةٍ قصيرة.

شيئًا فشيئًا، أخذت حركاتهما تخور، وتصبح أضعف فأضعف، متقطعةً متباعدة.
فطالما بقيت فيهما رجفة حياةٍ ضئيلة، لم يجرؤ أحد على الأكل؛
لكن ما إن خمدت أنفاسهما تمامًا، حتى اختفت الجثتان تحت كتلةٍ رهيبةٍ من الأرجل النحيلة والمخالب الضخمة والظهور الوردية والصفراء، التي كانت ألسنة النار المتراقصة تكسوها بضوءٍ متموّجٍ خادع.

وحين استيقظتُ عند بزوغ الفجر الباكر، لم يبقَ من المشهد سوى آلاف آثار المخالب مرسومةً على الرمل الجافّ اللامع، كأنها كتابةٌ غامضةٌ لا يفكّ رموزها أحد.

متع الغوص

في جزيرة الليث ما لبثت حياتنا أن انتظمت بسرعة.
كان جاك دوباس هو الضابط المسؤول، ولم يكن بالإمكان تخيّل قائدٍ أكثر وُدًّا وتعاطفًا منه.
قسّمنا أنفسنا إلى نوباتٍ ثنائية للقيام بالأعمال اليومية المعتادة: الطبخ، وغسل الأواني، وتنظيف المعسكر.
لكن نادرًا ما كان يمرّ يومٌ دون أن يأخذ دوباس نصيبه الزائد من عمل رفاقه، يشاركهم بحماسٍ لا يخلو من روح الزمالة.

كان المعنويات عاليةً للغاية، وكان من المعتاد أن يسعى كلّ فردٍ لأن يبذل أكثر مما يخصّه من نصيب الواجبات.
لقد كنّا محظوظين حقًا أن اجتمع أولئك الرجال – الذين لم يكن أحدهم يعرف الآخر قبل انطلاق البعثة، والمنحدرين من مؤسسات علمية مختلفة، وأحيانًا متنافسة – فإذا بهم يشكّلون منذ اللحظة الأولى فريقًا منسجمًا متماسكًا على نحوٍ نادر المثال.

في حياة البعثات الميدانية، من الضروري أن يؤدي كلّ رجلٍ دوره في العمل الجماعي بهدوءٍ ودون تذمّر، وأن يسهم أيضًا قليلًا في عمل الآخرين متى ما اقتضى الأمر.
كان شربونييه ودوباس، وكالام وميرسييه-ليفي، من هذه الناحية، رفاقًا مثاليين في روح التعاون والانضباط.

عاد إلينا السفينة كاليبسو من جدّة وهي تحمل فريقًا جديدًا من "الأساتذة".
كانوا قد وصلوا من فرنسا جوًّا:

جاكلين زانغ وكلود-فرانسيس بوف، وهما عالما فيزيولوجيا كيميائية،

والأستاذ بيير دراش، عالم الحيوان في جامعة السوربون،

والأستاذ أندريه غيلشر من جامعة نانسي، وهو جغرافي مرموق.

تقدّمت الدراسة العلمية للجزيرة بسرعةٍ لافتة.
ففي أوقاتٍ مختلفة من الليل والنهار، كان زانغ وكالام وفرانسيس بوف يقومون بجمع عيناتٍ من مياه البحر في نقاطٍ متعددة من البحيرات الساحلية،
ثم يقومون بتحليل هذه العينات لقياس نسبة الملوحة والحموضة والكثافة فيها.

أظهرت القياسات أن درجة حرارة المياه تكاد لا تتغيّر.

فقد أُسقِط من سفينة كاليبسو جهاز الهِيثي-ثيرموغراف – وهو أداة تُستخدم لتسجيل درجات الحرارة – إلى عمق خمسمائة قدم،
ومن خلاله تبيّن لنا أن درجة حرارة المياه تبقى ثابتة تقريبًا حتى عمق 350 قدمًا، عند حوالي ثمانين درجة فهرنهايت.
هذه الدفء الرائع لمياه البحر جعل من تجربة الغوص أمرًا غاية في المتعة والبهجة.

كنّا نغوص كثيرًا ـــ تارةً لجمع العينات العلمية، وتارةً لصيد السرطانات والجراد البحري للعشاء، وتارةً أخرى لمجرد تبريد الجلد المحترق من لهيب الشمس.

وخلال النزولات الأولى، اضطررنا إلى الاستغناء عن أجهزة الغوص الكاملة التي صمّمها كوستو، إذ كانت الضواغط الجديدة لا تعمل كما ينبغي، وكان علينا أن ننتظر حتى يقوم الميكانيكيون بإصلاحها.
وفي الأثناء، كنا نغوص بمعداتٍ بسيطة تشبه تلك التي يستخدمها صيّادو الأعماق:
زعانفٌ مطاطية في القدمين، وعدسة زجاجية تغطي الجزء العلوي من الوجه، وأنبوب تنفّس بين الأسنان.

ومن خلال صفاء الماء الاستثنائي البلّوري، كنا نرى بوضوحٍ لا يقل عن الرؤية في الهواء الطلق.

على السطح العلوي الأفقي من الحيد المرجاني المغمور – وهو يشبه الهضبة المسطّحة – كانت هناك مناطق واسعة مغطّاة بالرمال حيث تندر مظاهر الحياة نسبيًا:
بعض نجوم البحر، وعدد من الرخويات البحرية (تلك الكائنات الغريبة الشبيهة بالنقانق البنية الداكنة – وهي في الحقيقة من أقارب نجم البحر وقنافذ البحر)،
وبعض الأسماك الرمادية أو المائلة إلى الزرقة النادرة، وربما رؤوس قليلة من المرجان.

غير أنّك، ما إن تصل إلى الحافة التي يهبط منها الحيد عموديًا نحو الأعماق السحيقة، حتى يتحوّل ذلك النصف الصحراوي البحري إلى غابةٍ حافلةٍ بالحياة المدهشة.
لقد نمت هناك أنواع المرجان حتى شكّلت غابةً حقيقية:
أدغالٌ من سيقانٍ رشيقةٍ متشابكة الفروع، وعناقيد من كراتٍ ضخمة أو تكويناتٍ كلويّة الشكل،
وأغصانٌ بنفسجية، وأوراقٌ بيضاء كالثلج تمتد كالأصابع، وكراتٌ صفراء صافية كالذهب.
كانت ألوان المرجان دائمًا رقيقة كاللوحات الباستيلية.

وفي خضمّ هذا التشابك المهيب، وتحت النتوءات المتدلية، وعبر الأخاديد الضيقة في الحيد المرجاني، كانت عجائب الكائنات البحرية تسبح:
أسماكٌ تتلألأ بألوان قوس قزح، تتنوّع أشكالها وأحجامها،
تجمع بين البقع والخطوط والحلقات والأشعة في أنماطٍ مبهرة من الجمال الطبيعي.

ومن هناك كنا نحصد معظم عيناتنا البيولوجية.

كنا نسبح على بطوننا، والزعانف تتحرك ببطءٍ متواتر،
حتى تلوح لنا قطعة مرجانٍ نادرة أو مثيرة للاهتمام.
فنأخذ نفسًا عميقًا عبر الأنبوب،
ثم نندفع بقوةٍ إلى الأسفل — خمس عشرة، أو عشرين، وأحيانًا ثلاثين قدمًا في العمق.
ضربةٌ بالمطرقة، أو دفعةٌ قوية بالعتلة، تكفي غالبًا لاقتلاع العيّنة.
ثم دفعةٌ بالكعب نحو الأعلى تجعل الغواص يندفع صاعدًا كالبطة نحو السطح.

كان الغوّاص بعد ذلك يلوّح بيده نحو القارب الصغير الذي يتنقّل بين السابحين لجمع ما التُقط من عينات،
وهكذا كانت الغنائم العلمية تتكدّس تدريجيًا في القارب.
ولم نكن نجرؤ بعدُ على أن نتجاوز الحافة الصخرية التي كانت تشكل الحافة الخارجية للحاجز المرجاني، فهناك كان لون الماء يتبدل فجأة من الأخضر الزمردي إلى النيلي العميق، وهناك، بشكل مقلق، كانت تجوب المكان أسماك البراكودا وأسماك القرش.

وما إن أُصلحت الضواغط وعادت إلى العمل حتى استُبدلت أنابيب التنفس الصغيرة بجهاز الغوص الذاتي، وبدأت الرحلات العميقة إلى الأعماق.

إن جهاز الغوص الذاتي الذي طوّره كوستو وغانيان هو بمثابة رئةٍ صناعية تتيح لمرتديها أن يعيش في الماء كما يعيش السمك. ويعمل الجهاز آليًا لمدة ساعتين تقريبًا. ويتكوّن من أسطوانة معدنية خفيفة ضيقة العنق تُحمل على الظهر، وتحتوي على هواء مضغوط، ومن منظّم بسيط يقوم تلقائيًا بموازنة ضغط الهواء مع الضغط الخارجي المحيط، ومن أنبوبين مطاطيين يلتقيان عند قطعة فموية يُمسكها الغواص بين أسنانه.

أما بقية العتاد فهو ذاته الذي يستخدمه صيادو الأعماق العاديون، سوى أنه في المياه الباردة يُضاف لباس مطاطي ضيق من إسفنج مطاطي (النيوبيرين) لحفظ الحرارة. غير أننا كنا بعيدين كل البعد عن المياه الباردة! فمهما بلغت أعماق الغوص، ظل الماء دافئًا بنعومة آسرة، وهي ظاهرة نادرة سببها التركيب الجيولوجي الفريد للبحر الأحمر، إذ إن حوضه شبه المغلق لا يتصل بالمناطق المحيطية العميقة حيث تسود البرودة القصوى.

هذا البحر، القابع في أدفأ منطقة من الكرة الأرضية، والذي لا تصب فيه أنهار تخفف ملوحته، يتميز بتركيز ملحي مرتفع جدًا. ففي حين تبلغ ملوحة معظم المحيطات نحو 33 في الألف، فإن ملوحة البحر الأحمر تتجاوز 40 في الألف، وكان علينا أن نعتاد الطعم المالح القوي الذي يسببه ذلك.

أما الكثافة العالية للماء فقد فرضت علينا أن نثقل أحزمتنا بأوزان إضافية، إذ من دون هذه الأثقال كان الغواص، حتى مع كامل عتاده، يجد صعوبة كبيرة في النزول إلى القاع. ومن المدهش حقًا أن الناس قد يغرقون، فالغوص في ماء مالح غاية في الصعوبة من دون أدوات؛ فمن المستحيل تقريبًا أن يغوص

الإنسان بمحض إرادته، إذ يمكن لأي شخص حتى لو لم يكن سبّاحًا أن يبقى طافيًا ببساطة على ظهره، ما دام هادئًا ولا يبتلع الماء.

كانت الكاليبسو قد عادت من رحلة استكشافية استمرت عدة أيام في منطقةٍ من الحواجز المرجانية الطويلة تعرف باسم شعب سُليم وشعب جنّاب (وكلمة شعب في العربية تعني "الحيد" أو "الرفّ المرجاني")، وتقع على بعد نحو اثني عشر ميلًا إلى الغرب. وهناك، نزل دوما ومعه البروفيسور دراش إلى عمق مئتي قدم على طول جدران هذا الامتداد العجيب من التكوينات المغمورة.
كان الجرف البحري الذي نزل عليهما يرتفع فجأة من قاعدة أفقية تقع على عمق يزيد على ألف وثلاثمائة قدم تحت السطح. وقد بهت الاثنان من روعة المشهد المذهل الذي رأياه هناك. فطوال ساعاتٍ عدة، سبحا إلى أقصى ما يمكن للإنسان أن يبلغ، في مياهٍ زرقاء صافية تمامًا، تحيط بهما كائنات بحرية مذهلة بأشكالها وألوانها.

ومن تلك الرحلة اكتسبا ثقة جديدة في طبيعة أسماك القرش، إذ بدا أنها غير عدوانية تجاه الإنسان في الماء. فبعد بعض الحوادث المقلقة التي وقعت لنا في البداية، كنا نتخذ كل أنواع الاحتياطات الممكنة: كنا نغوص دومًا في مجموعات، ملازمين الحافة المرجانية، وكلٌّ منا يحمل سكينًا أو أداة حادة مربوطة بمعصمه بخيط. كما كنا نربط إلى كواحلنا كيسًا صغيرًا يحتوي على مادة طاردة لأسماك القرش، من بقايا مستلزمات الحرب، قيل إنها تذوب تدريجيًا في الماء وتطلق رائحة تُفترض أن تُبعد هذه الحيوانات.

لكن يبدو أن التركيبة كانت معيبة، إذ بدت القروش وكأنها تستمتع بالرائحة، فكانت تقترب منا لتشمها! ومع ذلك، وخلال غوصنا المتكرر الذي لا يُحصى، لم نتعرض لهجومٍ واحد، رغم أن القروش بمختلف أحجامها كانت تسبح بالعشرات حولنا، تراقب دون عدوانية.

كانت الكاليبسو ترسو في موقعها المعتاد، خطًا أبيضَ صغيرًا في عالمٍ أزرقَ كامل. وفي أحد الأيام، بعدما أنهيتُ مسحي الطبوغرافي للجزيرة، حانت لحظة تعميدي الأولى كغواصٍ حقيقي.

ثُبّتت على ظهري أسطوانة هواء مضغوط ثلاثية الحجرات، وربطتُ حول خصري حزامًا مثقلًا بالرصاص، ووضعتُ العدسة الزجاجية على عيني، والزعانف المطاطية في قدمي، ثم نزلتُ السلم المعلق على جانب السفينة. وما إن غمرتني المياه حتى خصري، حتى أمسكتُ قطعة الفم المطاطية بين أسناني، وتأكدتُ من تدفق الهواء بانسيابٍ طبيعي، ثم تركت نفسي تنحدر ببطء إلى الأعماق.

قال لي دومـا، مدرب الغوص لدينا، وهو يتهيأ للنزول:

> «اتبعني.»

لكن حين نظرت حولي بحثًا عن رفاقي – وأنا أكتشف في تلك اللحظات الإحساس الفريد بالتحرر التام من الوزن، ومن الخوف من الابتعاد عن هواء التنفس – لم أجد أحدًا منهم.

استدرتُ على ظهري، فوجدت أنني لم أغص سوى ستة أو ثمانية أقدام فقط. كان السطح قريبًا جدًا، يلمع كأنه زئبق سائل، يخترقه فوق رأسي هيكل زورقنا الخشبي بلون الماهوغني. وقد بثّ في نفسي طمأنينة عميقة.

ثم قلبتُ جسدي على بطني، وبدأتُ الغوص إلى الأسفل ببطء، أضرب الماء بقدميّ المزودتين بالزعانف . لم يكن القاع بعيدًا ـــ ثلاثون قدمًا فحسب ـــ وسرعان ما بلغتُه. كان أشبه بسجادةٍ من الرمل الباهت، تتخللها هنا وهناك صخور حادّة داكنة اللون. وبعد عشرين ضربةً بقدميّ المزودتين بالزعانف، وصلتُ إلى حافة منحدرٍ شديد الانحدار، بدا وكأنه يغور لمسافةٍ بعيدةٍ في الأعماق. ومن دون أدنى جهد، وبأسلوبٍ يكاد يشبه انزلاق الأسماك في الماء، بدأتُ أنحدر على بطني، رأسي متجه إلى الأسفل، في ماءٍ نقيٍّ إلى حدٍّ يجعله يكاد يكون غير مرئي.

أمامي مباشرة، وعلى بعد بضع بوصاتٍ فقط، تطايرت سحبٌ من الأسماك الصغيرة ذات الألوان القوس قزحية، كما تتطاير الثلوج تحت نصل مزلجةٍ خفية، تتحرك بطمأنينةٍ وسكينة، دون أي أثرٍ للخوف أو العجلة، ثم تتشابك في رقصٍ خفيفٍ بين أغصان المرجان.

وفجأةً وخزٌ حادٌّ في أذني الداخلية. عرفت فورًا أنه الألم الكلاسيكي الذي يهاجم الغواصين، الناتج عن اختلال الضغط بين داخل الأذن وخارجها، إذ لم يكن جسدي قد تكيّف بعد مع التغيّر المفاجئ في العمق.

كنت قد تلقيتُ نصيحة مسبقة:

> "إن شعرتَ بألمٍ في أذنك، فابتلع ريقك، وانفخ بقوةٍ من أنفك. فإن لم يفلح ذلك، فاصعد قليلًا قبل أن تنزل مجددًا."

نفذتُ التعليمات حرفيًا ـــ ابتلعتُ، ثم نفختُ ـــ ثم عدتُ إلى الأعلى قليلاً، بضع حركاتٍ بسيطةٍ للأعلى كما لو كنتُ أتمشّى في الفضاء المائي. وما لبث الألم أن اختفى بمعجزةٍ فورية، فاستأنفتُ نزولي متتبعًا قناةً ضيقةً بين نتوءاتٍ ضخمةٍ من صخور المرجان. أحيانًا كان المنحدر ينقطع بممرٍّ أفقي مغطّى بالرمل أو بتبدّلٍ طفيفٍ في زاوية الانحدار، مما يمنح الغواص لحظة استقرارٍ قصيرة.

في البداية، كنتُ أقول لنفسي إنني لن أبتعد كثيرًا، وسأحرص على أن أبقى تحت الزورق مباشرة. غير أني، بعد لحظاتٍ من الانبهار، نسيتُ كل احتياطات الحذر. نسيتُ السطح، والزورق، والرفاق، وكل ما فوق الماء.

كنتُ أتحرك في هذا العنصر الذي كان يومًا معاديًا للإنسان، بطمأنينةٍ وسلاسةٍ تفوق كثيرًا ما أشعر به فوق سطح الأرض. لم يعد هناك أي إحساسٍ بالوزن؛ فقد كانت كثافة جسدي متوازنة تمامًا مع الماء،

مما جعلني دائمًا في حالة توازنٍ مثالية، سواء كنتُ رأسيًا أو أفقيًا، مقلوبًا أو قائمًا. لم يعد يهمّ إن كنتُ أصعد أو أهبط؛ فهناك لا سقوط ولا تعثّر، ولا هبوط ولا صعود إلا إن رغبت بذلك.

كانت نشوة غريبة، وسحر غامض، يتملكان الغواص في الأعماق. إنه لا يسبح كما نظن، بل يطير في حلمٍ هادئٍ داخل سائلٍ كامل الشفافية والكمال، يطير لا يطفو، ينساب لا يعوم.

وعلى عكس ما يظنه الناس، فالجسد البشري قادر على تحمل ضغطٍ هائلٍ بسهولة، إذ إنه يتكوّن في جوهره من تسعة أعشارٍ من السوائل تقريبًا وكان جسدي في تلك اللحظة أقرب إلى كتلةٍ من السائل المقاوم لكل ضغط؛ فالأجزاء المملوءة مثل اللحم والعظم لا تتأثر مهما زاد العمق، أمّا الأجزاء المجوّفة كالرئتين وقنوات الأذن فهي التي تتعرّض للانضغاط. غير أن الجهاز المتصل بأسطوانة الهواء فوق ظهري كان قد وُضع بعبقريةٍ مذهلة: فهو ينظّم الهواء الداخل إلى الصدر والأذن بحيث يساوي ضغط الماء الخارجي تمامًا، فيتحقق توازنٌ كامل بين الداخل والخارج، بين الجسد والبحر، بين الإنسان والعالم السائل. وهكذا — mutatis mutandis كما يقول اللاتينيون — يبلغ الكائن البشري حالته الطبيعية الجديدة، حالة حياةٍ تحت الماء لا تقل اكتمالًا عن الحياة فوق اليابسة.

وصلتُ أخيرًا إلى قاع ما بدا لي كأنّه جوفٌ مرجانيّ ضخم، يشبه الحوض الدائري، وهناك حاولتُ — كما يفعل المرء بعد نزهةٍ طويلةٍ على اليابسة — أن أجلس على الرمل لأتأمل المنظر. لكن الجلوس بلا وزنٍ أمرٌ عبثي؛ فما الفائدة من الجلوس حين تستطيع أن تبقى معلّقًا في الفضاء المائي، مسترخيًا بين الحضور والغياب؟

بدأتُ أدور ببطءٍ حول هذا البئر المرجاني الغريب الذي كنت في قلبه — على عمق سبعين قدمًا تقريبًا. كانت الأسماك تملأ المكان كالسحب المتلألئة:

الكرانغ الزرقاء تلمع كالفولاذ،

أسماك الببغاء الخضراء الزاهية تلتقط المرجان بمنقارها الصلب،

أسماك الجرّاح الملونة كالأعلام المتقدة، تمتزج ألوانها في زرقةٍ كونيةٍ عجيبةٍ كأنها ذابت فيها،

وبينها أسماك الإبرة الطويلة، أجسادها كالحراب الفضية، وأفواهها مليئة بأسنانٍ دقيقةٍ حادّة كالمسامير.

ثم رفعتُ بصري إلى الأعلى، أتنقل ناظرًا بين الجهات، فرأيت على بعد أمتارٍ قليلةٍ فوقي جسمًا أبيض ضخمًا على شكل معين، يقترب بأجنحةٍ متموّجةٍ كحركة طائرٍ أسطوري. كان ذلك شيطان البحر — المانتا — تلك السمكة العملاقة المسطحة التي تعيش في المياه الدافئة.

في هذه المنطقة من البحر الأحمر، ولا سيما جنوب شرق الجزيرة، كانت المانتا كثيرةً إلى حدٍ مدهش، حتى إن زميلي دومـا أطلق على تلك الجهة اسم "مانتافيل" (Mantaville) بعد مغامرةٍ عجيبةٍ مع أحدها: فقد خرج ذات يومٍ مع "سـاووت" للصيد، فلما رميا رمحهما على مانتا ضخمةٍ، فزعت وانطلقت نحو الأعماق، تسحب خلفها الزورق الصغير كأنّه ريشةٌ مربوطةٌ بذيل نسرٍ هائج! لحسن الحظ لم تتجه نحو المياه السحيقة، وإلا لابتلعها البحر ومعها الرجلان. وعندما أنهكها التعب، اقتنص دومـا الفرصة وأطلق عليها رصاصةً أنهت معركتها الأخيرة.

رفعناها يومها إلى سطح "الكاليبسـو": سمكةٌ مسطحة هائلة، ظهرها أسود يلمع كالمخمل، وبطنها أبيض ناصع، وأجنحتها تمتدان إلى ما يقارب ثمانية عشر قدمًا ـــ كأنها بساطٌ طائرٌ خرج من أسطورةٍ قديمة.

أما المانتا التي كانت الآن تعلو رأسي، فقد حلّقت فوقي برشاقةٍ مهيبةٍ، وأثارت في داخلي شيئًا من الخوف الغريزي. تذكّرتُ فجأة الأساطير التي يرويها الغوّاصون القدامى: يقولون إن شيطان البحر إذا التقى غواصًا أو صائد لؤلؤٍ يُفرش فوقه بجناحيه العريضين فيسحقه، أو يطويه بين جناحيه حتى يختنق، أو يضربه بذيله الطويل المزوّد بإبرةٍ سامةٍ ترديه قتيلًا في لحظة .ورؤيته هناك، في صمت الأزرق المهيب، جعلتني أشعر بوحدةٍ قاسيةٍ ومفاجئة. لكن سرعان ما عاد إليَّ الاتزان وأنا أستعيد مشهد ذلك الشيطان البحري الذي شرّحه الأستاذ دراش على ظهر "الكاليبسـو". لقد بيّن لنا يومها كيف أن فمه الخالي من الأسنان تحيط به حلقة من المرشّحات الدقيقة تمكّنه من ابتلاع الكائنات المجهرية (البلانكتون) كما تفعل الحيتان الحقيقية.

انطلقتُ في صعودٍ مائلٍ نحو المانتا التي كانت تسبح بهدوءٍ على ارتفاع سبعة أو ثمانية أمتار فوقي، لكنّها لم تلبث أن غيّرت سرعتها فجأة، وبحركتها الرشيقة التي لا تكاد تُرى، اختفت في ثوانٍ قليلةٍ عن ناظري. لا شيء يثير الدهشة تحت الماء كـهذا التناقض الغريب بين خفة الحركات التي تكاد لا تُلحظ وبين السرعة الهائلة التي يحققها السمك في لحظةٍ واحدة ـــ فدفقةٌ خفيفة من زعنفةٍ صغيرة كفيلة بأن تطلق جسدًا ضخمًا بسرعة البرق.

بعد تلك التجربة الأولى بقليل، أُتيحت لي فرصة أخرى لاختبار القوة الرهيبة للأسماك الكبيرة. كانت هذه المرة سمكةً من عائلة القروش ـــ تلك الكائنات التي لم تكن تُقلقنا كثيرًا بقدر ما كانت تثير فينا الإعجاب، لما فيها من رشاقةٍ متكاسلةٍ وأناقةٍ باردةٍ تشبه الأفاعي البحرية.

كنت أسبح بمحاذاة جدارٍ مرجانيٍّ حين فوجئت فجأةً بقرشٍ طوله نحو عشرة أقدام يهبط من الأعلى هبوطًا صاروخيًّا مذهلًا، دون أن ألحظ أي حركةٍ ظاهرةٍ من زعانفه الظهرية أو الصدرية أو الذيلية. لقد انقضَّ انقضاضًا صامتًا كالسهم، فشعرت للحظةٍ بأن سكّيني وأدواتي الحادّة لا جدوى منها إطلاقًا أمام هذا السلطان الصامت للأعماق.

ومع ذلك، حتى الأنواع التي يُخشى أن تكون "آكلةً للبشر"، تمنح الغوّاص المتماسك فرصةً للبقاء. فهجومها ليس فوريًّا؛ بل تبدأ عادةً بـ الاقتراب الحذر والدوران الاستطلاعي. كما قال كوستو ـــ الذي

كان يعرف طباعها أكثر من أيٍّ منّا — "إنها لا تعض، بل تتذوّق"؛ فهي تختبر أولًا قبل أن تقرّر. وتلك اللحظات القليلة تمنح الإنسان فسحةً ليجمع شتات فكره ويستعد للمواجهة إن حدثت.

لكن الواقع أن القروش الكثيرة التي التقيناها في البحر الأحمر لم تُبدِ أي عداء. على العكس، كانت تبدو أكثر حذرًا منّا نحن الغوّاصين؛ كأنها تشعر بغرابة هذا الكائن المزوّد بأسطواناتٍ وأجنحةٍ من مطاط، والذي يسبح بينهم بثقةٍ وهدوءٍ وذراعين حرتين. لقد بدا لنا أن الخطر الحقيقي من القروش لا يتهدد الغواصين في الأعماق، بل السابحين قرب السطح فقط، حيث يتحرّكون كفريسةٍ طبيعيةٍ لا تملك دروعًا ولا أدواتٍ حامية.

ومن السهل أن ندرك السبب: فالغوّاص الحرّ في الأعماق يصبح جزءًا من الحياة الحيوانية المحيطة به. هو يسبح مثلها، وينزلق مثلها، ويراقب المشهد بعينٍ لا تختلف كثيرًا عن أعينها.
وما دام يمتلك ذراعين تُشبهان الزعانف لكنها أقوى وأطول، فليس غريبًا أن القرش حين يواجه هذا المخلوق الغريب يتردّد — بل يخاف. أما السابح على السطح، فهو على النقيض تمامًا من الغوّاص الحرّ؛ إذ لا يمتّ بصلةٍ إلى عالم الأسماك. وضعه أضعف بكثير، حالٌ بين عالمين ولا ينتمي لأيٍّ منهما. فإذا نظر إليه القرش من الأعماق، بدا له السطح كأنه غشاءٌ معدنيٌّ متموّج مستقلٌّ عن العالم السفلي — طبقةٌ لامعة تفصل تمامًا بين السماء والبحر، تحجب الرؤية كليًّا عمّا يحدث فوقها، وذلك بفضل ظاهرةٍ فيزيائية تُعرف باسم الانعكاس الكلي.

ومن موقعه هذا، لا يرى القرش من الإنسان العائم إلا أطرافًا تتحرّك ببطءٍ وتختفي أحيانًا، أو بطناً مكشوفاً بلا حماية، فيبدو له فريسةً سهلةً ولذيذة الطعم.

وهكذا، في عيون المفترس، يفقد الإنسان على السطح كل هيبته التي يكتسبها في الأعماق. فبينما يصبح الغوّاص في جوف البحر كائنًا غريبًا متسلّحًا ومهيبًا، يبدو السابح فوق الماء مجرد ظلٍّ مرتجفٍ عاجز، نصفه في الهواء ونصفه في المجهول — هدفًا مكشوفًا في عالمٍ لا يرحم.

الكادحون في البحر الأحمر

مضت الأسابيع في هدوءٍ منتظم، وكلٌّ منّا انصرف إلى ميدانه العلمي الذي نُدِب له. كانت الجرار والعلب تمتلئ يوماً بعد يوم بعيناتٍ مذهلة التنوع من الأسماك والقشريات، والجلد شوكيات، والرخويات، والديدان البحرية.
أمّا شيربونييه، فقد أحرز نجاحًا باهرًا في اصطياد معظم أنواع الطيور التي تعيش فوق الحيد المرجاني، بما في ذلك تلك الطيور الغريبة التي لا تظهر إلا عند الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر، مطلقةً صرخاتٍ حادّة وهي تمرّ سريعًا في أزواجٍ فوق البحر. ولم نتمكّن قط من معرفة المكان الذي تختفي فيه بقية النهار.
كانت تتميّز بريشتين طويلتين جدًا في ذيلها، دقيقتين كالقشّ، ولهذا سمّاها ديدي دوما طيور «مقياس الحرارة». ويبدو أنّ البحّارة القدماء الذين أطلقوا عليها اسم paille-en-cul (أي "قشّة في المؤخرة") لم تكن لهم معرفة بالترمومتر الطبي الذي أوحى إلى دوما بتسميتها تلك.

أما الخبراء الكيميائيون، فقد انتهوا تقريبًا من مشاهداتهم، وجمعوا عددًا كبيرًا من القوارير المملوءة بعيناتٍ من مياه البحر لإجراء تحليلٍ دقيقٍ لها في فرنسا.

وأمّا الدراسة الجيولوجية لجزيرة أبوللت (الليث) التي كانت من نصيبي، فكانت أبسط المهام: إذ لم يكن في الجزيرة ما يستحق الذكر سوى كتلٍ ضخمة من المرجان القديم الذي يشكّل بنيتها الأساسية، وبعض الطبقات الحاوية لأصدافٍ متحجّرة، وفي بعض المواضع تربة طينية يرجّح أنّها نتجت عن تحلّل تلك الأصداف إلى طباشير أو كلس.

وقد تبيّن لنا أنّ نشوء الجزيرة لم يكن بسبب انخفاضٍ في مستوى البحر — وهو افتراضٌ معقول، نظرًا لأن ما نسمّيه عادةً «مستوى سطح البحر» ليس ثابتًا كما نتصوّر — بل كان نتيجةَ حراكٍ باطنيٍّ أرضيٍّ وارتفاعٍ من الأعماق. وكان من أوضح الدلائل على ذلك وجود فوالق جيولوجيةٍ واضحة في الصخور، تتّجه في ثلاثة اتجاهات رئيسية هي ذاتها اتجاهات البحر الأحمر وامتداده الطبيعي نحو الجنوب، خليج عدن.

وهكذا، كان واضحًا أنّ الصدوع العتيقة التي ولّدت جزيرتنا قبل آلاف السنين إنما كانت جزءًا من نظامٍ جيولوجيٍّ واسعٍ يمتدّ على طول البحر الأحمر كلّه، ذلك البحر الذي لا يزال حتى اليوم ينبض بالحركة الباطنية والتمزّق البطيء في قشرة الأرض.
كان ذلك جزءًا من النظام الهائل من الصدوع الأرضية التي أنشأت البحر الأحمر نفسه.

كانت سفينة كاليبسو كثيرًا ما تتركنا في بعثاتٍ تمتدّ أيّامًا، وأحيانًا تغيب في الأفق أكثر مما هو متوقّع — كما حدث في ليلة عيد الميلاد، حين كان من المفترض أن تعود إلينا من جدّة محمّلة بالمؤن الطازجة والماء.
لكننا انتظرناها ثلاثة أيّامٍ كاملة قبل أن نحظى بالوليمة اللذيذة التي وُعِدنا بها.
وقد سجّل ديوباس في يوميّاته:

> "24 ديسمبر – ليلة عيد الميلاد."
"25 ديسمبر – لا تزال ليلة عيد الميلاد."
"26 ديسمبر – ما زالت ليلة عيد الميلاد..."

وفي مرةٍ أخرى، نفدت لدينا المواد الطازجة واضطررنا على مضض إلى الاعتماد على الأطعمة المعلّبة.
ومع أننا لم نكن في عوزٍ حقيقي، إذ كان البحر يهبنا الأسماك والسرطانات في كل حين، إلا أنّ حرارة الجزيرة العربية اللاهبة جعلتنا نتوق إلى الخضروات الطازجة والخبز الجديد.

وفي أحد الصباحات، حين كنا نتناول البسكويت الجاف في وجبة الإفطار بامتعاضٍ ظاهر، أعلن ديوباس قائلًا:

> "انتظروا... سأصنع خبزًا."

قلنا في حماس:

> "خبز! رائع! هل سيستغرق وقتًا طويلًا؟"
فأجاب:
"عشرون دقيقة... خمس وعشرون على الأكثر."

لكن بعد ساعةٍ كاملة كان ما يزال غارقًا في عمله. كان يصنع ما سمّاه "خبز الصحراء"، ذلك الذي يصنعه البدو الرحّل في الصحارى.
عجن عجينًا لا هو بالصلب ولا باللين، ثم ألقاه مباشرة في الرمل داخل حفرةٍ محفورة مسبقًا، بعد أن أوقد فيها نارًا بالحطب حتى احمرّت جمراتها، ثم ذرّها جانبًا.
غطّى الرغيف بالرمل الساخن، ثم جلس القرفصاء ينتظر بصبرٍ بدويٍّ عريق، يختبر الخبز بين الفينة والأخرى بطرف عصاه ليتأكّد من نضجه.
مضى الوقت، وتزايدت نظراتنا الطامعة في ذلك "الكنز" المدفون.
وأخيرًا، أخرج تحفته الرملية بحذر. كانت رائحة الخبز الساخن تملأ المكان، وبدأ لعابنا يتجمع في أفواهنا من الترقّب.
لكن ما إن تذقنا اللقمة الأولى حتى أدركنا الحقيقة:
لقد كانت وجبة فطور مقرمشة حقًا... والرمل هو السبب!

وفي يومٍ آخر، هبط بعض الرجال على الجزيرة.
كانوا ثلاثة صيادين عربًا، وصلوا في قاربٍ صغير يُدعى "بوري" ـــ يشبه الزورق البدائي، له سارية بسيطة وشراع مثلث بالٍ وممزق.

كانوا نحيفين، واقوياء، بشرتهم داكنة تميل إلى السواد من أثر الشمس والملح،
يبدون وكأنهم خرجوا من صفحات "ألف ليلة وليلة" ـــ صيادو بحرٍ فقراء، ولكن وجوههم تحكي ألف حكاية عن الصبر والمكابدة.

كان الرجال الثلاثة قد احترقت جلودهم بالشمس منذ ولادتهم، وبدت على وجوههم لحى خفيفة متناثرة، وعينان تتّقدان كجمرتين تحت عمامةٍ ملتفة بإهمالٍ حول الرأس.
أما ثيابهم فكانت إزارًا بائسًا لا يختلف كثيرًا عن شراع قاربهم الممزق ـــ مشهدٌ يجسّد البساطة والفقر في أقصى صوره.

سرعان ما نشأت الألفة بينهم وبين ديوباس؛ فقد شعروا، كما يشعر البدائيون بالفطرة، بأنه يحبهم ولا ينظر إليهم باستعلاء.
أقاموا في جزيرة الليث ثمانٍ وأربعين ساعة، جلس فيها ديوباس إليهم متربعًا على الرمال، يتحادث معهم عن الصيد والأسماك والقوارب، بل وعن شغفه الشخصي بالجمال.

كانوا يستخدمون شبكة الرمي الدائرية ـــ يلقونها وهم واقفون في مؤخرة القارب، ثم ينقضّون إلى الماء وراءها ـــ فيصطادون كمياتٍ كبيرة من الأسماك الشفافة الصغيرة التي تزدحم بها المياه فوق الشعب المرجانية أحيانًا حتى تبدو كأنها تغلي بالحياة.
ثم يتخذون من تلك الأسماك الصغيرة طُعمًا لصيدٍ أعظم: يمدّون خيوطهم على الأرفف المرجانية الغنية، ويعيدونها مثقلة بسمك الكَرَنْك (الكارنج)، اللذيذ الطعم.

قال لنا ديوباس إنهم إذا كان الصيد وفيرًا، فإن قارب "البوري" الصغير الذي يعمل عليه ثلاثة أو أربعة رجال يمكن أن يربح نحو ثمانية ريالات في اليوم الواحد ـــ أي ما يعادل خمسة شلنات للرجل تقريبًا.
لكن أحيانًا تستغرق أربعة أيّامٍ كاملة لتحقيق هذا الدخل الضئيل.

كانوا ينزلون إلى الجزيرة مرة أو مرتين في الشهر ليجففوا أسماكهم.
وكانوا يدفعون القارب إلى الشاطئ عرضًا على الموج لا في مواجهته، ثم يفرغون حمولتهم ويكدّسونها على صخرةٍ مرتفعة.
بعد ذلك يجلسون القرفصاء ويوقدون نارًا صغيرة ليُعدّوا قهوة عربية سوداء يغليها اللهب، يشربونها ببطءٍ من أكوابٍ صغيرة تمسكها أكفّهم المحروقة بالشمس.

وبعد أن يشربوا قهوتهم، يشرعون في عملهم بخفّةٍ ومهارةٍ مدهشتين.
يشقّون سمك الكَرَنْك الجميل ـــ وهو يشبه سمك التونة في شكله ـــ بضربةٍ حادّة من سكاكينهم اللامعة كالموسى،
ثم بضربةٍ أخرى مقوّسة ينزعون الأحشاء في حركةٍ واحدةٍ سريعة.
بعدها يُمدّ جسد السمكة المنفصل إلى نصفين مسطّحين فوق الصخر ليجفّ أسابيع طويلة تحت شمسٍ حارقة،

وقد رفعوه على ارتفاعٍ كافٍ ليحول دون وصول السرطانات البرّية من نوع "أوسيبود" (Ocypod) التي تتسلّق الرمال بنهمٍ شديد.

وهكذا تُجفّف مئات بل آلاف الأسماك بهذه الطريقة تحت لهيب النهار.

لكن حتى إن عجزت تلك السرطانات الجشعة عن بلوغ الصخر،
فقد كانت آلاف السرطانات الصغيرة الأخرى تزحف لتقتات من بقايا اللحم،
ومن بينها السرطانات الناسكة الصغيرة، التي تتّخذ من أصداف الرخويات الفارغة بيوتًا لها،
ويُطلق عليها أيضًا اسم "السينوبيتي" (Cenobites) ـــ
كأنها نُسّاك البحر،
رحّلٌ صغار يحملون بيوتهم على ظهورهم،
تعيش في عالمٍ لا يهدأ، بين الملح والرمل والضوء الأزرق المائي.
كان يُطلق على تلك السرطانات الصغيرة اسم الـ«رُهبان» (Anchorites)، لأن كلّ واحدٍ منها يعيش حياة انعزالٍ تامٍّ داخل صدفته الخاصة.
فعلى شواطئ جزيرة الليث بل وحتى في داخلها، كانت الأصداف المتحرّكة التي تبدو كأنها تنتمي إلى الرخويات، يسكنها دائمًا سرطان صغير بدلاً من الحلزون الأصلي.
وكانت أعدادها هائلة؛ أينما وقفت وسكنت، سمعت خريرها الخافت، واحدًا أو عشرة أو مئة تجرّ بيوتها الحلزونية المنحوتة بدقّة فوق حجارة المرجان.
وما إن يقترب منها خطرٌ أو ظلّ إنسان، حتى تطوي مخالبها وهوائياتها ورأسها دفعةً واحدة، وتختبئ في صدفها الصغير الذي يصبح فجأة ساكنًا بلا حياة.
كانت مخلوقات وديعة تمامًا، مضحكة في حركاتها المرتبكة، حتى إننا شعرنا نحوها بعطفٍ حقيقي، كما لو كانت جراءً صغيرةً مضحكة تتعثر في خطواتها الأولى.

وقد كشف لنا الصيادون العرب عن سرّ القبور الكثيرة المنتشرة في جزر البحر المفتوح مثل مرمر وملاتو.
كانت قبورًا إسلامية بسيطة، تُعلَّم أحيانًا بكومة من الحجارة المسطّحة، أو بحجرين منصوبين عند الرأس المتجه نحو القبلة، مكة المكرمة.
في البداية ظننا أنها قبورٌ لغرقى أو لضحايا سفنٍ تحطّمت، أو ربما لمقاتلين سقطوا في البحر؛
لكن الصيادين أخبرونا أنها قبور الحُجّاج ـــ الذين لقوا حتفهم في الطريق إلى بيت الله الحرام، أو أثناء عودتهم منه،
بعضهم لفظ البحر جسده، وبعضهم دفنه الرفاق على جزيرةٍ قريبةٍ من طريقهم.

لقد كانت المدينة المقدسة للإسلام، مكة المكرمة، هي الغاية الأرضية لعشرات الملايين من المؤمنين، والحاجّ الذي يرى البيت العتيق ويقبّل الحجر الأسود في الموضع الذي خطب فيه النبي محمد ﷺ، يُعدّ في نظر المسلمين من أهل الجنة الموعودة بعد موته.

إن رحلة الحج حلمٌ خالدٌ لدى أتباع النبي من جزر إندونيسيا شرقًا إلى المغرب غربًا، ومن ناتال جنوبًا إلى بلاد التتار شمالًا.
غير أن الطريق من السنغال أو سومطرة إلى الحجاز طويلٌ ومرهق.
فحتى أولئك الذين يسافرون في عنابر السفن المزدحمة، أو يقطعون الصحارى سيرًا على الأقدام مئات الأميال،
يجدون أن تكاليف الحج باهظة على أغلب المؤمنين الفقراء.

ومع ذلك، ما إن يتمكن أحدهم بعد سنواتٍ من الادخار من جمع المبلغ المطلوب،
حتى ينطلق دون تردّد في تلك الرحلة المقدّسة التي تُتوّج العمر.
لكن، ويا للأسف! الوصول إلى حدود الحجاز لا يكفي؛
فقد كان لزامًا على كل حاجّ أن يدفع رسم دخولٍ قدره ثمانيةٌ وعشرون جنيهًا إسترلينيًا.

وبالنسبة إلى العامل الهندي البسيط، أو فلاح النيل الفقير، الذي يصطحب زوجته وأطفاله ووالديه المسنّين،
كان هذا المبلغ ثروةً طائلةً تفوق ما يجنيه في عمرٍ كامل —
مئة أو مئتا جنيهٍ لمن لا يتجاوز دخله شِلنين في اليوم الواحد.

> وقد أُلغي هذا الرسم مؤخرًا بأمرٍ من الملك عبد العزيز آل سعود،
إذ كان قبل ذلك المصدرَ الرئيسَ لدخل الدولة والعائلة المالكة.
وبعد أن غدت عائدات النفط أضعافًا مضاعفةً، رُئي من الحكمة أن يُلغى رسم الحج، إكرامًا للمسلمين جميعًا.

لا يقل عدد الحجاج المتسللين، الذين يُسمّيهم العرب التيلونيور (Teloniur)، عن أولئك الذين لا يعبرون بطرقٍ مشروعة إلى البلاد المقدسة.
لقد نشأ في الواقع نظام تهريبٍ منظَّم لهؤلاء الفقراء الذين يحلمون ببلوغ مكة المكرمة.
ففي قوارب الصيد الصغيرة، والمراكب الشراعية (الدهو)، والزورق العربي المعروف بالزاروق،
يقف المهرّبون أو الملاحون على الشاطئ الإفريقي، يحملون حمولتهم البشرية،
ثم يعبرون البحر الأحمر نحو الحجاز.

وأحيانًا يكون العبور هادئًا بلا حوادث،
لكن في أحيانٍ أخرى تهبّ الرياح مناوئة،
فلا تتقدّم القوارب إلا أميالًا قليلة في اليوم،
تُصارع أمواج هذا البحر الداخلي العاتي، القصيرة والمتحطّمة كأنها جدران من الزبد.

أما المسافرون البؤساء، الذين أرهقهم الجوع منذ ولادتهم،
وأنهكتهم أسابيع وأشهر من السير المتواصل بلا راحة ولا غذاء كافٍ،

فقلّما يستطيعون مقاومة العاصفة.
وكثيرًا ما يفارقون الحياة هناك، في القارب نفسه.

لكنّ الشريعة الإسلامية تُحرِّم إلقاء جثمان المسلم في البحر،
وتوجب دفنه وفق الشعائر، مع توجيه رأسه نحو القبلة، مكة المكرمة.
ولأنّ إنزال الجثامين على سواحل الجزيرة العربية أمرٌ محفوفٌ بالخطر،
فقد يكون النزول نفسه سريًّا ومستعجلًا لتفادي عيون حرّاس الشيوخ في الحجاز،
فلا يبقى أمامهم سوى الانتظار حتى يمرّوا بجزيرةٍ صغيرةٍ مهجورة،
وهناك، في الرمال الدافئة الجافة، يُدفَن أولئك الذين ماتوا قبل أن يبلغوا غايتهم المقدّسة،
في سكونٍ تام، تحت شمسٍ لا ترحم، على أطراف البحر الأحمر.

غير أن العبّارين أنفسهم لا يخلو بعضهم من الإجرام؛
فقد يحدث أن ينقلبوا قتلةً ولصوصًا،
ينهبون المسافرين، ثم يذبحونهم جميعًا،
ويُوارونهم التراب على جزيرةٍ مقفرة،
لكنهم، على طريقتهم الغريبة، يؤدّون عليهم صلاة الميت ويدفنونهم وفق شعائر الإسلام ـــ
فـ هم مؤمنون أيضًا، رغم جريمتهم.

وفي أحد الأيام، على شاطئ جزيرةٍ نائية،
عثَرنا على بقايا عظامٍ بشريةٍ متناثرة:
قطعٌ من جمجمةٍ وفكٍّ سفليٍّ، كانت يومًا جزءًا من إنسانٍ حيّ،
تلمع بياضًا على الرمال الصفراء تحت شمسٍ رهيبة.

في تلك اللحظة، بدا أن الحياة والموت على هذه الرقعة الصخرية الصغيرة، وسط البحر، لهما القيمة نفسها؛
كأنهما تفصيلان هامشيان في مشهدٍ كونيٍّ هائلٍ لا يعبأ بالبشر.
على مقياس الكواكب، ما الفرق بيني أنا الحيّ، وبين هذا الجمجم المتحجّر الملقى على الساحل؟
كنا كلانا مجرّد غبارٍ على صفحة البحر.

لقد كان الإسلام هو القوة التي تهيمن تمامًا على حياة العرب،
حتى في قلب البحار، وفي أعماق الصحارى.
ففي تلك الامتدادات الأفقية المترامية من الرمال الصخرية،
وعلى حافة المحجة القديمة (المجبد)،
طريق القوافل الذي سلكته الأجيال قرونًا،
تجد لا القبور وحدها المعلَّمة بحجارةٍ مسطّحةٍ مرفوعةٍ قليلًا عن الأرض،
بل أحيانًا أيضًا «مساجد الصحراء»:

مستطيلاتٍ من الحجارة السوداء،
مرصوفةٍ بعنايةٍ هندسيةٍ تامة،
متناسقة في الشكل،
إلا من انحناءةٍ بسيطةٍ في الجدار الطويل المواجه لمكة ـــ
دليل القبلة لمن يصلي هناك تحت سماءٍ بلا ظلّ ولا سقف.

عثرنا على أحد هذه المصليات الصحراوية فوق جزيرةٍ دقيقة الحجم،
تشبه في شكلها صدفة السلحفاة،
تقع قريبًا من جزيرة ابو للت (الليث)

كان من الصعب أن يتصوّر المرء أن إنسانًا كلّف نفسه عناء تسلّق تلك الجرف الحاد،
الذي تعلوه حافة صخرية بارزة،
ليبلغ تلك الرقعة المحدّبة القاحلة،
التي لا يزيد طولها عن ثلاثين قامة بحرية (نحو خمسين مترًا).

لقد لم أستطع أنا نفسي الوصول إليها إلا بصعوبة كبيرة،
وأنا أحمل جهاز الثيودوليت مع حامله الثلاثي على كتفي،
لأجري بعض القياسات الطوبوغرافية.

وهناك، فوق ذلك الجزء العاري من الشعاب المرجانية،
الذي يكاد يكون بلا حياةٍ ولا ظلّ،
كانت مرسومة بقطعٍ من الفحم اللامع
مسجدٌ صحراويٌّ آخر ـــ
رمز الإيمان الصامت وسط الفراغ البحري اللامتناهي.

عالم الأعماق المائية

خلال رحلتنا عبر البحر الأحمر، أجرينا أربع غطساتٍ عميقةٍ حقيقية.
كانت أولى تلك الغطسات هي التي قام بها دوما ودراك وديباس على امتداد شِعْب سُليم، حيث هبطوا حتى الموضع الذي بدا فيه الجرف العمودي تقريبًا وكأنه يستقر على منحدرٍ رمليٍّ لطيف الميل.

لقد أثار هذا الوصف في نفسي حماسةً علميةً بالغة، إذ ربما كانت هناك الحلقة المفقودة بين البناء المرجاني وقاعدته المعدنية.
فحتى اليوم، لا يزال أحد أهم ألغاز علم البحار دون حلٍّ حاسم:
ما طبيعة الأساسات التي تقوم عليها الأتولات المرجانية في العالم؟
أهي جزرٌ بركانيةٌ قديمة؟
أم صخورٌ غرانيتيةٌ أو رسوبية الأصل؟

أخبرني الغواصون أن الغوص انتهى بهم إلى أرضٍ من الرمل الناعم، وهناك توقف نزولهم.
لكنهم، ويا للأسف، لم يحاولوا التحقق من سماكة تلك الطبقة الرملية أو مما يكمن تحتها.
فهم — بصفتهم علماء أحياء بحرية — كانوا منصرفين إلى دراسة الكائنات الحية لا إلى طبقات الأرض،
ولم يكن في طاقة الإنسان، تحت ذلك الضغط الهائل، أن يجمع بين عملين متناقضين.

ورغم أنني كنت آنذاك مبتدئًا في فن الغوص، فقد تقرر أن أشارك في الغطسة التالية، نظرًا لأهمية الجانب الجيولوجي من الدراسة.
على أن ذلك تم بشرطٍ صارم:
أن ألتزم بالطاعة المطلقة تحت الماء،
وأن أصعد إلى السطح فورًا عند إحساسي بأدنى اضطرابٍ أو تعبٍ.

كان دوما يقف على آخر درجةٍ من السلم القصير المثبّت إلى جانب القارب، وقد غاصت قدماه بالفعل تحت سطح الماء.
أمسك بيده اليمنى العمود المعدني ليستند إليه،
وباليسرى رفع قطعة الفم المتصلة بأنبوب الهواء ليهيئها لوضعها في فمه.

تأملني من وراء القناع الزجاجي بصمتٍ دقيقٍ لا يتجاوز ثانيتين،
تحت جبهةٍ عريضةٍ بلون الطوب المحروق تعلوها خصلٌ قصيرةٌ من الشعر الكثيف،
ثم قال بصوتٍ عميقٍ صارم:

> "تازيف، هل تفهم التعليمات؟

الطاعة المطلقة تحت الماء!"

فأجبته باقتضاب:

> "أفهم تمامًا، دوما. انطلق أنت أولًا."

انزلق دوما إلى الماء بخفةٍ محسوبة، وأخذ يدور تحت السطح في انتظارنا نحن الباقين. كنت أتوق لأن أغوص بدوري؛ فالغواص، ما دام في الهواء، يبدو بزيّه الغريب ثقيل الحركة أشبه بفارسٍ مخلوعٍ عن جواده في درعه المعدنية: مثقلٌ بالخزانات، محاصرٌ بالأنابيب، معرقلٌ بالزعانف التي تصطدم بكل خطوة. الزجاجة تغيم من البخار، والخزان الثلاثي الأسطوانات يضغط على الكتفين، والحزام المثقل بالرصاص يجرّ الجلد العاري حتى الكدمات.

لكن ما إن تنغمر في الماء حتى يقع المعجزة الدائمة للغوص: تنعدم الثقل، ويتحقق التوازن الكامل.

بدأنا نهبط ببطء في عمق البحر.
كان دوما يتقدمنا، أشبه بسهمٍ كسولٍ من الفضة، يرسم خلفه سلسلةً من الفقاعات المضيئة التي تتجه صاعدة نحو السطح.

تختفي فجأة الزحمة المدهشة للحياة في الطبقات العليا، لتحل محلها عزلة شبه تامة، عالم ساكنٌ يمكن للمرء أن "يسمع فيه الصمت".

صرنا نسير بمحاذاة الجدار المنحدر من الرمل الشاحب، تتخلله هنا وهناك كتلٌ من الصخور الميتة غطتها أعشاب البحر الداكنة.
كنا نندفع إلى الأمام بحركةٍ بطيئةٍ منتظمةٍ من زعانفنا، لا تبعد بطوننا عن الجدار أكثر من ستة أقدام، نُحلّق بمحاذاة رفٍّ رأسيٍّ ينحدر بلا نهاية نحو هاويةٍ تدعو إلى الدوار.

كان يبدو لنا وكأن قطع المرجان التائهة، وتلال الرمل، وعُقَد الأعشاب المتمايلة، تصعد نحونا من الأعماق،
وكأننا نحن الثابتون، والعالم السفلي كله يرتقي إلينا ببطءٍ مهيب.

كانت أجسادنا مشدودة، ورؤوسنا ملتفة إلى الأسفل، وعيوننا تتسع ذهولًا خلف الأقنعة الزجاجية، ونحن ندخل عالمًا مهيبًا تجرد من كل زينة السطح؛
لم تعد هناك تلك الأشكال الطريفة أو الألوان الزاهية التي تعج بها المياه الضحلة، بل صرامة وجلال باطنيّ،
ومشهد يعكس جمال البساطة الخالصة.

كان يمر بنا أحيانًا ظلّ سمكةٍ ضخمةٍ، تسير ببطءٍ مطمئنٍ في صمتٍ، ثم تختفي، فيما يستمر الانحدار في انتظامه، يقود دائمًا نحو أعماقٍ لا تُنال.

التفتُّ لأتفقد من خلفي، فرأيت دراك ونيستروف يتبعانني، بطونهما تقابل الجدار، وكلٌّ منهما يشق طريقه في عمودٍ من الفقاعات اللامعة كالمعدن المصقول.
بدَوا كأنهم كائنات آلية غريبة، تتقدم بخطى بطيئةٍ مرنةٍ لا تصدر صوتًا، نصف إنسانٍ ونصف آلةٍ من أعماق البحر.

كانت هيئتنا نحن الثلاثة، بأقنعتنا الزجاجية المعدنية وأسطواناتنا الصلبة على الظهر، وبالأنابيب الزرقاء الملتفة بين الخراطيم الصفراء الغليظة، تثير في النفس شيئًا من الرهبة. بدونا ككائناتٍ خارجةٍ من عالمٍ آخر.

ثم أدركت فجأة أن سطح البحر قد اختفى.
ذلك اللمعان الفضي الباهر الذي كان يعلونا ـــ تلاشى.
صرنا في عمقٍ لم يعد فيه للسطح وجود. نحن الآن داخل كونٍ كرويٍّ مغلقٍ،
كلٌّ منا يقف في مركز عالمه الخاص.

وفوقنا، على ارتفاعٍ بعيد، تلوح إضاءة باهتة؛
أما تحتنا، فتتبدّى زرقة أرجوانية غامقة تمتد بلا قرار نحو الأعماق الهائلة.
ومع أن الجدار الصخري قريبٌ منا، فإن الإحساس السائد لا يزال غريبًا ـــ
إحساس بالاكتمال الكروي، توازنٌ مطلقٌ في كل الاتجاهات.

ما يجعلنا نلتصق بهذا الجدار هو الخوف من أسماك القرش.
أحيانًا نراها تمرّ ظلالها الحادة أمامنا،
وأحيانًا نلمح فكّها المفترس المفتوح في صمت.
وفي حال الهجوم، نشعر ببعض الأمان حين يكون الصخر خلف ظهورنا.

الضوء هنا منحلٌّ متبدد، لا يسطع ولا يختفي.
الصفاء البلوري في الأعلى تحول إلى رماديةٍ باهتةٍ مشوبةٍ بالعتمة،
والبياض المتلألئ لرمال المرجان أصبح قاتمًا غامضًا.

لقد دخلنا عالمًا شاسعًا، مجهولًا، خارج الزمن.
وانتابني شعور غريب بأنني عرفت هذا المكان من قبل:
هذا المنحدر الأبيض الذي تتخلله نقاط سوداء قليلة،
هذا الوميض المكتوم،
هذا الصمت الرخامي،

تلك اللامبالاة الكونية الماثلة في كل شيء...

نعم، لقد عرفته — يشبه ممرًّا جليديًّا في جبالٍ عاليةٍ،
حين يُحاصر المرء بالضباب،
حين يختفي الكون كله،
ولا يبقى سوى مساحات رمادية صامتة.
هنا أيضًا تتجلى العظمة المقفرة للعالم غير العضوي.

توقف دوما.
والتوقف تحت الماء ليس كالتوقف على اليابسة؛
إنه حركة دقيقة، ميلٌ إلى السكون لا لحظةٌ قاطعة،
كأنك تلمح ظلًّا لفعلٍ لا يتمّ.

مدّ نحونا أصابع يده اليسرى مفرودة، وإبهام اليمنى مرتفع:
ستون.
ثم فتح كفّه اليمنى: خمس وستون مترًا — أي ما يقارب مئتي قدم.
كان مقياس الضغط على معصمه قد أبلغه ذلك.

كنت لا أزال أشعر بخفةٍ تامة.
فلا تعب بالرغم من الضغط، ولا دوار، ولا ألم.
حتى أذناي خاليتان تقريبًا من الانزعاج.
تذكرت ما يسميه الغواصون نشوة الأعماق —
ذلك الإحساس الغريب بالسعادة الهادئة الذي يتزايد كلما ازداد العمق،
حتى يتحول إلى نشوةٍ قاتلةٍ مسكرةٍ،
نشوةٍ غامضةٍ تنبع من عالمٍ لا يُقاس بالهواء ولا بالضوء.
كان جزء من الهواء الذي أتنفّسه يذوب في دمي تحت ضغط الأعماق، فتزداد نشوة الغوص تبعًا لكمية النيتروجين وثاني أكسيد الكربون التي يحملها الدم. وغالبًا ما تبدأ حالة "نشوة الأعماق" أو الغيبوبة الناتجة عن الضغط عند عمق مئةٍ وخمسين قدمًا، غير أنني حتى الآن لم أشعر بشيء، وكنت أرجو أن يستمر النزول أكثر. يا لها من روعة أن يهبط الإنسان نحو المجهول في تلك الهوّات السحيقة! لكن عندما أشرت إلى دوما بإبهامي متسائلًا إن كنا سنواصل الهبوط، أجابني برفع سبّابته في إشارةٍ قاطعة بالرفض. لم يكن الأمر بيدي، ومع ذلك فقد كان الوصول إلى هذا العمق في حد ذاته إنجازًا مدهشًا، تجربة فريدة في عالمٍ محجوبٍ عن البشر، يلفّه الضوء الرماديّ الباهت لعالمٍ محرّمٍ وساحر.

كان دوما ودراح ممددين أفقيًا، كأنهما عالقان بالجدار الصخري بأيديهما، يجمعان عيناتٍ من الطحالب، يحشرانها واحدةً تلو الأخرى في الأكياس الشبكية المعلّقة عند خصريهما. أما بيير دراح فكان يدوّن ملاحظاته بعناية على اللوح الصغير المعلّق بمعصمه. عند تلك اللحظة، غمرني شعور بالغيرة من

طلاب السوربون الذين سيحضرون لاحقًا محاضرات هذا الأستاذ العصري، الذي لا يستقي معارفه من الكتب، بل من صمت الأعماق وغموضها.
نظرت إلى الأسفل، فرأيت الجرف ينتهي فجأة بمنبسطٍ رمليٍّ واسع، غير أنني أدركت في الحال أن آمالي قد خابت، فنحن لا نزال بعيدين عن قاعدة الأتول المرجاني، وأن هذا المنبسط ليس سوى شرفةٍ صغيرةٍ لا يتجاوز عرضها بضع ياردات، تليها منحدراتٌ أخرى تتدرج نحو الهاوية بلا نهاية. التفتُّ أبحث عن نيستروف لأتبادل معه إشارات خيبة الأمل الجيولوجية، لكنني رأيته متوقفًا عند ارتفاعٍ أعلى وقد بدأت نشوة الأعماق تُثقِل أطرافه ببطء. وبحكمة الغواص الخبير، عرف متى يجب أن يتوقف.
كنت أجهد بصري في التقاط أدق التفاصيل من حولي، وأحاول بجسدي كلّه أن أستشعر هذا الوسط الغريب، وأمتصّ بكل كياني سحره البارد والصامت. عندها التفت دوما نحوي بحركةٍ رشيقة، وأشار إليّ بإبهامه آمرًا بالصعود. سرنا بمحاذاة الجدار الصخري نعلو ببطء، تتقدّمنا سلاسل فقاعاتنا الفضية وهي ترتفع نحو السطح. لكن قناع الزجاج الذي أرتديه كان مشدودًا بإحكامٍ مفرط، وحافته بدأت تحتكّ بجلدي أسفل الأنف. حاولت إدخال إصبعي بين المطاط وخدي لتخفيف الضغط قليلًا، غير أنني سمحت عن غير قصد لمياه البحر المضغوطة بأن تندفع إلى الداخل، فغمرت الماء عينيّ وأذنيّ ولم تبقَ إلا فقاعةٌ صغيرة من الهواء عند أعلى القناع. عندها انتابني شعورٌ خاطفٌ بالفزع؛ لم أعد أرى إلا ظلالًا مبهمة، وكانت أنفي ممتلئةً بماءٍ مالحٍ لاذع. حاولتُ طرد الماء الذي اقتحم قناعي، لكن دون جدوى، إذ لم أكن أعرف الخدعة البسيطة المتمثّلة في الانقلاب على الظهر ورفع الوجه نحو الأعلى قبل النفخ. كان عليَّ أن أصعد بسرعة! أملتُ عنقي، وألصقت خدي بكتفي حتى تمكّنت من رفع إحدى عينيّ داخل جيب الهواء الصغير المتبقي في القناع. لم تكن الرؤية مريحة، لكنها على الأقل ممكنة. عندها أدركت أنني، خلال هذه الثواني القليلة، فقدتُ رفاقي، إذ تركت نفسي رتفع عموديًا بدلًا من أن أتابع الصعود بمحاذاة الجرف المائل للشعاب المرجانية. نظرت إلى الأسفل فرأيت الماء كثيفًا غائمًا، والرفاق قد ابتعدوا كثيرًا.
كنت الآن في المياه المفتوحة، تلك المنطقة التي نتجنبها دائمًا خوفًا من أسماك القرش. صحيحٌ أنها تبدو مسالمة في معظم الأحيان، لكن لا أحد يعلم متى قد تُبدي نوباتٍ من العدوان كما كان دوما يردد دائمًا: "حتى القروش لها مزاجها!"

اشتدّ قلقي، فجدفت برجليّ المثبتتين بالزعانف بكل ما أملك من قوة، ثم بدأت أستخدم ذراعيّ في السباحة، وهو أمرٌ غير معتاد في الغوص. كان الخنجر الذي نحمله دائمًا يتدلّى من معصمي الأيمن، وفجأةً اخترق طرفه الحادّ فخذي بعنف!
صرخت في نفسي: "اللعنة!"
لم أشعر بالألم بقدر ما داهمني الذهول، لكنني تذكّرت على الفور أن الدم قد يجذب القروش. حاولت النظر إلى الجرح، غير أن أدنى انحناءة سببت ألمًا في عيني. قلت في نفسي: "لا بأس، طالما أن النزيف ليس شديدًا."

تابعت الصعود بأقصى ما أستطيع، لكن السطح بدا بعيدًا جدًا. وفجأة، فوقي مباشرة، ظهرت هيئة طويلة نحيلة ثابتة لا تتحرك ـــ كانت الباراكودا، تلك الرمح القاسية، مفترسة البحار الكبرى. لطالما بثّت هذه الأسماك في نفسي رعبًا يفوق رعب القرش، لا لشيء إلا لبرودها المميت ولا مبالاتها المروّعة.
انحرفت مبتعدًا عنها قليلًا محاولًا ألا أقترب منها أكثر من اللازم، وعينيّ تراقبانها قدر المستطاع عبر

نصف الرؤية المتاحة لي. لكن ذلك المخلوق المتغطرس تجاهلني تمامًا، وسرعان ما اختفى في الزرقة. ولسوء الحظ، لم يكن هذا كل شيء؛ فما هي إلا لحظات حتى مرت على مقربةٍ مني، لا تزيد عن عشرة أمتار، سمكتان من القروش، لم أرَهما إلا بعد أن أصبحتا بجانبي. كانت الصدمة خاطفة، لكنها عنيفة، إذ اندفعتا مسرعتين ثم اختفيتا ببرودٍ لا يُطاق.

وأخيرًا، لاح السطح يلمع تحت أشعة الشمس. توقفتُ على عمق ذراعٍ تقريبًا، ملتزمًا بالقواعد الصارمة للغواصين عند الصعود من الأعماق الكبيرة، والتي توجب التدرّج في الصعود لتفادي أضرار الضغط. ثم خرجت إلى الهواء، ورفعت القناع لأفرغه من الماء. بدا أن رائحة الدم لم تُثر اهتمام القروش التي مرت بجانبي قبل قليل كانت رائحة الدم التي نزفتها ضئيلة للغاية، مجرد قطرات طفيفة من جرح صغير في فخذي، ومع ذلك، ظلّ سؤالٌ يُلحّ عليَّ: هل مرور القروش بجانبي دون اكتراثٍ بي كان محض صدفة؟ أم أن كل ما يُقال عن شراستها أسطورة مبالغ فيها؟ لعل القروش، شأنها شأن سائر اللاحمين، لا تفترس إلا حين تكون جائعة فعلًا. لقد لاحظنا مرارًا، أثناء عملنا في الجزيرة أن للحيوانات المفترسة أوقاتًا محددة للطعام — نحو الخامسة مساءً، على وجه الخصوص.
حتى تلك الساعة، يسود البحر سكون مهيب. تمرّ القروش والحيتان الصغيرة والمفترسات الأخرى بين أسراب السمك الصغير من غير أن تثير فيها أدنى فزع، كأن الجميع قد أبرم معاهدة سلام. المشهد يذكّر بسهول تنغانيقا الكبرى، حيث تمشي الأسود المهيبة بخطًى واثقة وسط قطعان الغزلان التي تتابع رعيها بهدوء، غير آبهة بما حولها. حتى الطيور في الأعلى تبدو مطمئنة؛ بعضها يحلّق في دوائر واسعة، وبعضها يرفرف في الهواء متدرّبًا على أجنحته، وآخر يطفو بسلام فوق سطح البحر المشرق بأشعة الشمس.

وفجأة — وكأن إشارة خفيّة صدرت في الأعماق — ينقلب المشهد رأسًا على عقب. تهتزّ صفحة الماء أولًا كارتعاشة خفيفة، ثم تتكاثف الأمواج وتعلو، ويتحوّل البحر في لحظات إلى ساحة معركة مضطربة صاخبة بلا صوت. آلاف، بل ملايين من الأسماك الصغيرة الفضية اللون تتطاير في كل اتجاه، تطاردها أسماك أكبر، وهذه بدورها تهرب من أخرى أضخم، في دوامةٍ هائلة من الهلع والجوع.
أسماك الإبرة تنطلق من الماء كسهامٍ لامعة، تقفز وتقفز من جديد، كل مرةٍ تعود لتضرب السطح قبل أن تهبط أخيرًا إلى الأعماق، مطمئنةً — في ظنها — بعد سباقٍ جويٍّ مجنون امتد لمئات الأمتار. أما الأسماك الطائرة، فتندفع بجنون بأجنحتها الزعنفية لتفرّ من الكرانجيد المفترسة، ومن البونيتو الجائعة، ومن القروش بمختلف أحجامها، وهي تنقضّ على أسراب الفارين في مشهدٍ هائجٍ أشبه بالإعصار.

وفوق هذا الجنون الصامت، تفقد حتى طيور البجع وقارها؛ تتخلى عن هدوئها الملكي، وتندفع بجناحيها الثقيلين نحو بقعة الصيد الغنية، تخترق المياه بأعناقها الطويلة حتى تغمرها تمامًا، لتلتقط بمنقارها الضخم فريستها الشهية.
وعلى ارتفاع عشرين أو ثلاثين ياردة، تحوم طيور البوبي في دوائر واسعة، تمسح سطح البحر بأعينها المتنبّهة، تلتفت يمينًا ويسارًا، ثم فجأة تهوي بسرعة مذهلة كأنها قذائف دقيقة التوجيه. تُغلق أجنحتها السوداء الواسعة في اللحظة الأخيرة، وتختفي في رذاذ الماء الناتج عن ارتطامها. وبعد ثانية واحدة فقط،

تطفو إلى السطح وفي منقارها سمكة صغيرة تتلوى، قبل أن تعود محلّقة نحو صغيرها الأبيض المغطّى بزغبٍ ناعم، المنتظر على حافة الجرف الطباشيري ليتلقى لقمة الحياة من فمها.
على أطراف الجزيرة المرجانية، كانت طيور الفايتون البيضاء تعبر السماء بلا انقطاع، تخفق أجنحتها بخفّةٍ وحماسة كأنها رسل الريح، بينما نسور البحر تحلّق عاليًا في دوائر متأنية قبل أن تهوي فجأة، كالسهم، على فريستها الغافلة.

نصف ساعة فقط من الغليان والافتراس، ثم تهدأ الطبيعة كما لو أنها أفرغت ما في جوفها من شراسة.
يعود السكون إلى البحيرة الضحلة، وتغدو مياهها مرآةً من زمرد صافٍ تحت ضياءٍ متوهّجٍ كالتوباز في لحظات الغروب الأخيرة.

الشمس لم تعد تحرق، بل تلامس كل ما حولها بلمسةٍ دافئةٍ ودودة، تغمر الجزر الصغيرة ببريقٍ ذهبيٍّ مصقول كالنحاس القديم.

تبدأ الظلال بالتمدد، رويدًا رويدًا، ومعها يسري السكون على صفحة البحر كله. وفي الأفق البعيد، وراء الخط الأزرق العميق الذي يفصل البحر عن السماء، تلوح جبال العرب بثلاث سلاسل متوازية: أولها داكنة بلون الجمشت العميق، تليها أخرى أفتح قليلًا، ثم ثالثة تبهت حتى تصير بنفسجية شفافة تمتد أكثر من ثلاثين فرسخًا داخل ضبابٍ بنفسجيٍّ خفيفٍ من ضوء الشفق، كأنها حلم يتلاشى في تخوم الأفق.

في قصر الأمير

من على الشاطئ كنا نتابع الكاليبسو وهي تدور بخفة، تزيد من سرعتها، ثم تتجه نحو عرض البحر. كنا ثلاثة فقط تُركنا على اليابسة في بعثة جيولوجية داخلية، بينما واصل الباقون رحلتهم البحرية. مرّت سبعة أسابيع منذ مغادرتنا تولون، وخلالها كنا نُطلق لحانا عمدًا استعدادًا لهذا اليوم — وقد نمت بالفعل كما خططنا. كانت لحية دوباس سوداء كثيفة، مقصوصة بدقّة على شكل دائري، تُضفي على وجهه الأسمر وحاجبيه الأسودين هيئة عربيّ أصيل. أما نيستروف، فعلى الرغم من اسمراره الشديد بفعل الشمس، فقد كانت عيناه الفاتحتان وشعره الأشقر الفاتح كافيين ليفضحه مهما حاول التنكر. وأنا؟ لم يكن لي أمل في الاندماج إطلاقًا، بلحيتي الصغيرة المحمرة، وعينيّ الزرقاوين، وبشرتي المائلة إلى الاحمرار القرميدي.
ومع ذلك، كنا نملك جميعًا ما لا غنى عنه للرجل الذي لا يريد أن يُحتقر بين العرب: اللحية.

على بُعد ميلٍ تقريبًا، كانت واحة النخيل تلوح كرقعةٍ داكنةٍ وسط الامتداد الهائل من الرمال، تتوسطها قلعة شامخة كأنها من زمنٍ إقطاعيّ قديم.
نزلنا إلى الشاطئ في ما يُسمّى الوسيع — وهو اسمٌ رنّان لمرفأ لا يضم أكثر من ثلاث مراكب صيد خشبية متآكلة ألقتها الأمواج على الرمل، وزورق تركي عتيق غارق نصفه في الطين، وقارب بخاري متهالك مهجور منذ زمن بعيد. كانت هناك أطلال تركية باهتة، وعلى مسافةٍ منها كوخٌ من القش — هو كل ما تبقّى من منشآت الميناء.

خرج من الكوخ رجلان نحيفان طويلان، في أرديةٍ فضفاضةٍ بيضاء ترفرف في نسيم الصباح. كانا حارسي الميناء. صافحناهما طويلاً — مصافحة العرب التي لا تعرف العجلة — ثم جلسنا جميعًا القرفصاء، وبدأت المحادثة. أي أن دوباس والعرب تحدثوا، بينما اكتفينا نحن بالإنصات. مضى نصف ساعة ونحن ننتظر أن تصل عربة من الليث لنقل معداتنا الثقيلة.

قلت لدوباس:

> "اسألهم إن كانوا يعرفون متى سيأتي أحد لنقلنا."

لكنه ابتسم وقال بهدوء العالم بأحوال العرب:

> "لسنا هنا في بلادٍ يُسأل فيها عن متى، بل في بلادٍ يُنتظر فيها القدر."

لم نكن في بلاد أوروبا أو أمريكا حيث تُقضى الأمور ببساطة وسرعة، بل في أرضٍ لها طقوسها الخاصة. هنا، تبدأ المحادثة بسلسلةٍ لا تنتهي من المجاملات واللياقات، فلا يُمكنك الدخول في الموضوع مباشرة. عليك أولًا أن تمرَّ عبر طقوس الحديث، تتحدث عن الجو، وعن المطر، وعن الماشية، وعن القبائل المجاورة... ثم بعد طول انتظار، يُمكنك أن تلمّح إلى ما جئت من أجله.

بهذا الأسلوب الهادئ المتدرّج، علم دوباس من الرجلين أن أسراب الجراد قد اجتاحت المنطقة، وأن أمطار ديسمبر لم تهطل هذا العام، وأن المراعي ما تزال خصبة للإبل. وبعد أن طاف الحديث في كل الاتجاهات، وصل أخيرًا إلى السؤال الذي نريده: القارب البخاري المهمل على الشاطئ. لقد تقاذفته الأمواج إلى هنا أيام الحرب، حين كان جانب من البحر الأحمر يقاتل الجانب الآخر. سألنا عمّا حلّ بالبحّارة الإيطاليين الذين كانوا على متنه بعد أن تحطم على الصخور، لكن أحدًا لم يُرِد أن يروي القصة.

عندها رأى دوباس أن الوقت أصبح مناسبًا لطرح السؤال مباشرة:

> "هل سيأتي أحد من قِبل الأمير قريبًا؟"

ابتسم الرجلان، كاشفَين عن أسنانٍ بيضاء لامعة وقالا في هدوء:

> "انتظروا قليلًا... سترون."

فانتظرنا، جالسين القرفصاء في دائرة صغيرة، بينما كانت الشمس تهبط ببطء نحو صفحة الموج.

وفي نهاية النهار، ظهرت من بعيد شاحنة تهتز فوق الرمال الصلبة، محمّلة برجالٍ عمائمهم ترفرف، وبرانسهم البيضاء تتطاير مع الريح. توقفت الشاحنة، وقفز الرجال منها مبتسمين، وأحاطوا بنا. بدأ فصلٌ جديد من التحيات الطويلة المعقدة، حاولنا تقليد دوباس في أدائها، لكن الأمر لم يكن سهلاً. كنا نلقي نظرة خاطفة عليه لنتعلّم منه الحركات، بينما نحاول في الوقت نفسه أن نبدو لبقين أمام من نُصافحهم.

تمد يدك إلى صدرك وتقول: "عليكم السلام"، ثم تفتح راحة يدك نحو الأمام، وتلمس كفّ الآخر، وتنحني قليلًا لتضع أطراف أصابعك على جبهتك ثم على شفتيك... وهكذا مع كل واحدٍ من المجموعة.
"لاباس؟"
"لاباس..."
ثم التالي، فالتالي. وكانوا نحو اثني عشر رجلًا — من بينهم أحد الوجهاء، وحاشيته، حتى آخر الخدم. تساءلنا بصمت: هل يُصافح المرء الخدم أيضًا؟ لم نكن نعرف الجواب، فاخترنا أن نتبع ميولنا الديمقراطية ومددنا أيدينا للجميع.

أخيرًا، حُمِّلَت أمتعتنا في الشاحنة، وبدأت الرحلة نحو القرية الرئيسة. كان السائق مثل كثير من سائقي آسيا وإفريقيا — بل وأوروبا أحيانًا — لا يعرف أن عليه تخفيف السرعة أو تغيير الترس عندما يبدأ المحرك بالتأوّه من الإجهاد. كان المحرك يئن، والشاحنة تهتز تحتنا، تتقدم ببطءٍ لا يتجاوز عشرة أميال في الساعة. همست لدوباس:

> "ربما ينبغي أن تنبّهه على حال السيارة."

لكنه، ببرود الدبلوماسيين، اكتفى بابتسامةٍ صامتة وقال:

> "دعه وشأنه... فحتى الآلات هنا تتعلّم الصبر."

بعد أن تجاوزنا بستانًا صغيرًا من أشجار النخيل القصيرة، وصلنا إلى ما يشبه الساحة الواسعة، وفي نهايتها، على مرتفعٍ طفيف من الأرض، ارتفع القصْر الذي كنا قد لمحناه من السفينة: بناء مربع الشكل، تتعالى في زواياه الأربع أبراج ضخمة كالحصون القديمة. كانت بعض الجِمال ترعى الحشائش القاحلة، وعدد من البدو ذوي اللحى الكثيفة يراقبوننا بصمتٍ ونحن نمر، بينما كانت النسور تحلق في السماء الزرقاء في دوائر واسعة متهادية. شعرنا أننا دخلنا عالمًا آخر، عالمًا أشبه بعصورٍ منسية، وتساءل كلٌّ منا في نفسه: ما الذي ينتظرنا داخل هذا الحصن الوسيط؟

قادنا الموفَد الرسمي عبر البوابة حيث وقف الحارس مؤديًا التحية العسكرية عند دخولنا. قطعنا ساحة داخلية واسعة، ثم صعدنا سلّمًا ملاصقًا للجدار حتى بلغنا الطابق الأول، وهناك دخلنا قاعة مستطيلة ضخمة مفروشة بسجادٍ بديع. لم يكن فيها أيّ أثاث، سوى صفوفٍ من الوسائد الموزعة على طول الجدران. وما إن دخلنا حتى نهض عشرون رجلًا من العرب كانوا يجلسون هناك. كانوا يرتدون أرديتهم البيضاء الطويلة، وعلى وجوههم النحيلة الملتحية ارتسمت ملامح صارمة ازدادت قتامةً تحت العمائم الناصعة التي تُثبَّت عند الصدغين بحلقتين سوداوين من العِقال.

كان أطولهم قامةً وأشدهم نحولًا هو الأمير سعد بن الشيخ نفسه[1]. تبادلنا التحايا المعتادة والابتسامات الرسمية. وقدّم إلينا الأمير الرجل الذي رافقنا من الميناء — وكان أخاه الأمير البحّار، قائد الأسطول الساحلي. ثم جلسنا نحن الثلاثة إلى جانب الأمير في أحد أركان القاعة، بينما جلس رجال البلاط في الركن المقابل.

بعد مقدمةٍ طويلة من المجاملات، ذكَّره دوباس بزيارته السابقة مع الكابتن كوستو، وبالوعد الذي قطعه حينها بتقديم العون لبعثتنا العلمية. ثم أوضح له أننا جئنا الآن نلتمس دعمه في تنظيم رحلةٍ إلى جبال الداخل. أومأ الأمير برأسه بإجلال، وأجاب بأسلوبٍ مهيب، وبدأ يطرح الأسئلة بتأنٍّ واهتمام. كانت له هيئة ملوكية آسرة: وجهٌ نحيل بارز الوجنتين، عينان غائرتان متقدتان، فمٌ صارم الملامح تتدلّى شفتاه السميكتان بشيءٍ من الترف الحسي.
أما نيستروف وأنا، فلم نفهم كلمةً واحدة من الحديث، فمال نحوي هامسًا من جانب فمه:
> **"يبدو أن لأميرنا الكثير ليقوله... لكنّ طبعه ليس من النوع الودود!"**
رجال الحاشية كانوا على قدرٍ مماثل من الرصانة والهيبة. جلسوا متربعين في سكونٍ مهيب، تلتف حولهم عباءاتهم الواسعة بانسيابٍ أنيق، وقد أضفت عليهم ملامحهم الحادة وأجسادهم النحيلة مسحةً تشبه القطط المفترسة — نحولٌ لا يخفي قوةً كامنة، ووجوهٌ دقيقة القسمات، تشبه وجوه الطيور الجارحة.

---

[1] الأمير سعد بن محمد بن مقرن الودعاني الدوسري (1326–1398هـ)، فارس وشاعر وأمير شارك في معركة السبلة ورافق الملك عبدالعزيز، وتولى إماراتٍ عدة منها رنية والليث والخرج والدوادمي والمجمعة،

كان رجال الحاشية مدججين بالسلاح بصورة لافتة للنظر؛ أحزمة خرطوش تتقاطع على صدورهم، ومسدسات تتدلّى من أحزمة جلدية، وسيوف وخناجر ويَتَغانات وكِنْجالات في أغمادٍ رائعة من فضةٍ منقوشة ومُطعّمة بالذهب الدمشقي.

دخل خادمان حافيا القدمين، يتحركان في صمتٍ تام، يحملان صينيّتين صغيرتين. صبّا من ارتفاعٍ محسوب في أكوابٍ دقيقة من الزجاج السميك سائلًا حارًّا، شفافًا مائلًا إلى البنيّ. أمسكت الكأس بحذرٍ في يدي أراقب ما سيفعله الآخرون. رأيت الأمير يُقَدّم شفتيه البارزتين ويرتشف الشراب على جرعاتٍ سريعة. قلدته على مضض، متسائلًا في نفسي عمّا يمكن أن يكون هذا المشروب. همست إلى نيستروف قائلاً:

> "هل عندك فكرة عمّا نشرب؟"

فأجاب وهو يخفض صوته في لحيته:

> "ليس لديّ أدنى فكرة... أترى أنه قهوة؟"

قهوة؟ هُمم... كان الطعم لاذعًا، قويّ الرائحة، غريبًا في نكهته. احتجنا وقتًا حتى أدركنا أن الطعم الفوّاح العنيف للقرنفل قد طغى تمامًا على نكهة القهوة الأصلية. كانت إذن قهوة ـــ ولكنها قهوة خضراء، إذ لا يقوم العرب بتحميصها كما نفعل نحن. ابتلعت ما تبقى في الكأس دفعةً واحدة لأنهي الأمر بسرعة، لكن الخادم عاد حالًا، بخفةٍ وصمتٍ، ليملأها من جديد. لم أجرؤ على الرفض.

حلّ الليل. جُلبت مصباحةٌ قوية تعمل بالكيروسين، أخذت تُطنّ بنعومةٍ وهي تلقي على الجدران البيضاء ظلالًا غريبة متراقصة. كان الخدم قد وضعوا أمتعتنا في ركنٍ من القاعة، فبدت سخيفة المنظر ـــ تلك الحقائب الصغيرة، والصندوق المعدني الذي يحتوي على أشرطة التصوير ـــ تمامًا كما كنا نحن نبدو غرباء بملابسنا الأوروبية وسط هذا المشهد الشرقي المهيب.

جُمعت أكواب القهوة، ثم قُدّمت لنا أكواب صغيرة سميكة الجدران مملوءة بشايٍ مغليٍّ معطّرٍ بالأعشاب. وقف الخادم في وسط القاعة يتأمل الحاضرين بعينٍ يقظة، مستعدًا لإعادة ملء الكؤوس مرارًا وتكرارًا. وخلال ذلك كان دوباس، وهو يميل برأسه نحو الأمير، يشرح بصبرٍ وحذر حاجاتنا البسيطة: شاحنة أو بعض الجمال لتنقلنا إلى الجبال، وعددًا من الرجال يرافقوننا في الطريق.

كان الحوار بينهما يسير بهدوءٍ متواصل، كجدول ماءٍ رقراق، حتى إذا ما اعترضه شيءٌ غامض، توقف لحظة، ثم عاد ليسيل من جديد. ومرّ الوقت ببطءٍ ثقيل ـــ قهوة، ثم شاي، ثم قهوة، فشاي من جديد ـــ في طقوسٍ متكرّرة لا تقلّ رهبة عن المكان نفسه.

كانت الأصوات الغليظة تتردّد في القاعة، تمتزج بطنين المصباح الذي يملأ الفضاء الشاسع بنوره الأصفر الخافت. كانت القاعة من السعة بحيث بدت شبه خالية، رغم أنّ أكثر من عشرين رجلًا يجلسون فيها على شكل حلقة.

قال دوباس وهو يلتفت إلينا مبتسمًا ابتسامة عريضة:

> "جيّد! لقد قال الأمير إنّه سيرسل غدًا رسولًا إلى الداخل ليتفقد حالة الطرق، فقد تكون الأمطار الأخيرة قد أفسدتها. فإن كانت صالحة للسير أعارنا شاحنة، وإن لم تكن كذلك، سيتّصل الرّسول بمشايخ البدو ليؤمّنوا لنا بعض الجمال الجيدة."

ابتسمنا بدورنا، وانحنيت نحو الأمير شاكرًا إياه بالفرنسية، محاولًا أن أجعل ملامحي تعبّر عن الامتنان، رغم أني لم أكن واثقًا تمامًا أنه فهم شيئًا. ثم نهض الجميع، وتكرّرت التحيات التقليدية، وتوالت الانحناءات، وانسحب الأمير يتبعه حاشيته كلها في صفٍّ مهيب.

قال دوباس وهو يمدّ ساقيه بعد انصرافهم:

> "إن كنت قد فهمت جيدًا، فدعوتنا للبقاء هنا الليلة مؤكدة."

لكن النوم لم يزرنا تلك الليلة. فخيالنا كان قد سبقنا إلى أعماق الصحراء، نمتطي الجمال فوق دروبٍ وعرة نحو الجبال المجهولة، بينما واقعنا كان أقل شاعرية بكثير — إذ كنا فريسةً لأسرابٍ من البعوض تدور حولنا ليلًا بطنينٍ لا يُطاق. كانت الحرارة الخانقة تُجبرنا على إلقاء الأغطية، وفي كل مرةٍ نفعل يعود الهجوم الجويّ أكثر شراسة.

تذمّر دوباس قائلاً بنصف صوت:

> "ألا يمكنهم أن يلدغونا دون كل هذا الضجيج الجهنّمي؟"

ولم تلبث الهجمة الجوية أن تبعتها حملة أرضية أكثر إزعاجًا. سمعتُ صوت نيستروف الهادئ يؤكد شكوكي بأسلوبه العلمي الساخر:

> "أيها السادة، يؤسفني أن أعلن لكم وجود فرقةٍ قوية من الحشرات المعروفة علميًا باسم Aphaniptera، والتي تُعرف شعبيًا بالبراغيث."

كانت الساعات تمرّ ببطءٍ مملٍّ لا يُطاق، يُقطّع صمته بين الحين والآخر نهيق حمارٍ في الخارج، ثم — أخيرًا — صياح ديكٍ أعلن قدوم الفجر.

مع أول ضوءٍ للصباح، دخل علينا خادمٌ زنجيٌّ طويل القامة يرتدي جُبّةً فضفاضة، يحمل صينيةً من النحاس الأصفر عليها أوانٍ صغيرة من المينا الملوّنة. جلسنا القرفصاء حولها على أحد السجاد الفارسي الفخم. مددت ملعقتي بحذرٍ في مادةٍ لزجة بدت لي كأنها بيضٌ مطبوخ في الزيت، لا أعرف إن كان من اللياقة الشرقية أن نترك شيئًا في الأطباق، لكني — من أجل سمعة الفرنسيين — تمنّيت أن يكون الجواب بالنفي.

كان الطبق الثاني يحتوي على شعيريةٍ بنية اللون مطبوخةٍ في الزيت أيضًا، بينما حملت الأطباق الأخرى ما بدا أنه تمرٌ مهروسٌ بالعسل، وخبزٌ مسطّح ساخن تفوح منه رائحة الدقيق المحمّص. كانت الأطباق المتبقية تحتوي على فولٍ مطبوخٍ جيدًا، وعسلٍ عطِرٍ حبيبي القوام، وفطائرَ كبيرةٍ مصنوعةٍ من عجينٍ غير مملّحٍ ولا مختمر. وقفَ خادمنا الأسود، مسنودًا إلى الجدار، يراقبنا بعينين لامعتين، ومن حينٍ إلى آخر كان ابتسامه العريض يشق وجهه الودود، فيجعل بشرته السمراء تلمع تحت انعكاس أسنانه البيضاء المتناسقة كالعاج.

سأله دوباس وهو يتناول لقمة من العسل:

> "ما اسمك؟"

أجاب الرجل بهدوءٍ وفخرٍ طفولي:

> "مبروك. عبدٌ للأمير سعد بن الشيخ."

قال دوباس متعجبًا:

> "عبد؟ أتقصد أنه اشتراك؟"

ابتسم مبروك ابتسامةً واثقة وقال ببساطة لا تخلو من الاعتزاز:

> "نعم، اشتَراني... دفع فيّ مالًا كثيرًا."

كان في صوته نغمة فخرٍ لا تخفى؛ فمعرفته أنه غالِ الثمن كانت تمنحه اعتزازًا بريئًا بقيمته السوقية. فسأله دوباس وهو يضحك:

> "وكم كان الثمن؟"

قال مبروك رافعًا رأسه:

> "خمسة آلاف ريال."

تبادلنا النظرات بدهشةٍ صامتة، ثم حسبنا المبلغ في أذهاننا: نحو خمسمائة وخمسةٍ وعشرين جنيهًا إسترلينيًا!

قال دوباس بخفةٍ ساخرة:

> "إذن فالإنسان هنا يعرف حقًا ثمنه!"

ظلّ مبروك واقفًا، باسماً بفخرٍ بسيط، وكأنّه لم يفهم السخرية الرقيقة في كلام دوباس. تأملناه طويلاً — إنسانٌ مسلوب الإرادة، يُباع ويُشترى علنًا، في زمنٍ نعدّ فيه أنفسنا قد تجاوزنا العبودية. كان مشهدًا يهزّ الوجدان بقدر ما يثير التأمل: عبدٌ حقيقي، لا يخفي وضعه تحت ستارٍ من الأسماء المموّهة كما في عالمنا "المتحضّر".

بعد أن انتهينا من تناول الشاي، أمسك مبروك بإبريقٍ نحاسي وصبّ من ارتفاعٍ مدروس خيطًا رفيعًا من الماء على أصابعنا التي غطّاها أثر الزيت والعسل. بالكاد انتهى من مهمته حتى دخل رجلٌ عربيٌّ ملتحٍ، تصاحبه خَشخشة ثوبه الأبيض الفضفاض وعباءته السوداء التي كان يرتديها كوشاحٍ ملكيٍّ بلا أكمام. كان أحد رجال الحاشية الذين رأيناهم في الليلة السابقة — موفدًا من الأمير ليكون رفيقنا ودليلنا في زيارتنا لمدينة الليث.

يا لِكرم الضيافة! لم يكتفِ الأمير بإيوائنا وإطعامنا، بل أرسل معنا من ينظّم لنا أوقات فراغنا أيضًا!

اصطحبنا الشيخ على الفور ليرينا مفخرة سكان الصحراء جميعًا — موارد المياه. كان في البلدة أربع عشرة بئرًا محفورة حتى مستوى المياه الجوفية، وكان لزامًا علينا أن نزورَها كلَّها واحدةً تلو الأخرى. بعضُها لم يزد على حلقةٍ من الحجارة تحدّد فوهتها، وبعضها الآخر كان مكللًا ببناءٍ مرتفعٍ من الطوب والحجر، يشي بفخر القوم بما يملكون من ماءٍ في قلب القفر.

وغادرنا الظلّ الواهي الذي تلقيه نخلاتٌ هزيلة، متجهين نحوالفسحة الرملية الواسعة التي تحيط بالآبار، وهناك أشار الشيخ بيده أن نقترب. تقدمنا واحدًا تلو الآخر، وانحنينا فوق الفتحات الداكنة — منابع الحياة في هذه الأصقاع القاحلة — واستنشقنا لبضع ثوانٍ ذلك الهواء الفريد: رطوبةٌ عابقة، نكهةٌ مالحةٌ خفيفة، ممزوجةٌ برائحةٍ عَفِنةٍ لينةٍ تذكّر بأن الحياة هنا لا تُمنَح إلا بشروطٍ قاسية. ثم رفعنا رؤوسنا ثانيةً، ووجَّهنا إلى الشيخ كلمات الإعجاب التي كان ينتظرها بابتسامة رضا تليق بمضيفٍ عربيٍّ معتدٍّ بكرمه.

كان العبيد يسقون الماء من كل بئرٍ على طريقتهم البدائية. دلوٌ مصنوع من جلدِ عنزةٍ مقلوبةٍ، أُربِطت قوائمها وأُعلِقت في حبلٍ طويلٍ. كانوا يسحبونه بأذرعٍ متينةٍ حتى يبلغ سطح الماء، ثم يفرغونه في قِرَبٍ جلديةٍ تُصنع أيضًا من جلود الماعز، الذكر منها أو الأنثى. وبعد أن تمتلئ القربتان تُعلَّقان على جانبي حمارٍ صغيرٍ صبور، فينطلق راكضًا بخفةٍ تحت حملٍ يناهز مئتين من الأرطال من الماء، وفوقهما نحو مئةٍ أخرى من وزن العبد الجالس فوق الحمولة، كأنما اعتاد هو الآخر هذا القدر المفروض.
كان أكثر هؤلاء العبيد زنوجًا من السودان أو الصومال، لكنّ فيهم أيضًا عربًا ويمنيين من ذوي البشرة الفاتحة. وأخبرونا أن في الداخل البعيد أوروبيين أيضًا ضمن الرقيق. لم نلحظ عليهم سوء معاملة؛ بل إن بعضهم كان ممتلئ الجسم، قوي البنية، يفيض بالحيوية، كأنّه وُجد أصلًا لهذا العمل المضني. تحدث إليهم دوباس بضع كلمات، فلم يُبدِ أحدٌ منهم شكوى. بل أجاب بعضهم بابتسامةٍ قانعةٍ:
> "إن شاء الله، هي إرادة الله."
كثيرٌ منهم أبناءٌ وأحفادٌ وأبناءُ أحفادٍ لعبيدٍ من قبلهم؛ فصارت العبودية بالنسبة إليهم حالةً طبيعيةً من الوجود، كما يولد الإنسان ليكون رجلًا. آخرون يتذكرون – على نحوٍ باهتٍ – أنهم وُلدوا "أحرارًا" على الضفة الأخرى من البحر الأحمر، ثم بيعوا صغارًا لتجّارٍ نقلوهم إلى جزيرة العرب. هؤلاء لا يحملون في صدورهم بقايا تمرّدٍ، إن كان قد وُجد يومًا. لا ذاكرة لديهم تكفي لاستحضار تلك الحنين الذي وصفه سانت إكزوبيري في قصة "بارك"؛ العبد الذي عاش يومًا حرًّا، فعرف طعم الإنسان قبل أن يُصبح شيئًا يُباع ويُشترى. لا، فهؤلاء ليسوا سوى عبيدٍ بالوراثة، والعبودية بالنسبة إليهم هي الصيغة العادية للحياة.
كانت الآبار تُكوّن سلسلةً تطوّق مدينة الليث وتحفّها ببساتين من النخل والخضرة. ومع ذلك بدا المشهد متقشفًا: نخيلٌ ضامر بالمقارنة مع واحات الصحراء الكبرى، وحدائقُ صغيرةٌ هزيلة لا تنبت سوى بعض القرع والفول، أما "حقل الذرة" فكان في الحقيقة رقعةً من الرمل لا تكاد تبرز فيها خصلاتٌ خضراء متباعدة كل خمسة أمتار.
ثم أشار دليلنا أن نتابع السير عبر القرية، وكانت تتألف من شارعٍ رئيسي لا يتجاوز طوله مئة ياردة، تتفرع منه أزقة ضيقة تتلوى بين جدرانٍ صفراء عمياء. ذلك الشارع الذي يُطلق عليه السكان "السوق الكبير" كان مكتظًا بجموعٍ من البدو المبتسمين، يتسللون بخفةٍ بين دكاكينٍ متواضعةٍ تعرض ما تيسّر من بضائع. بعد أن أبهرتنا شمسُ الصحراء الساطعة خارج الأسوار، احتجنا إلى وقتٍ حتى تأقلمت أعيننا مع الظل الداكن للسوق المسقوف.

كانت السلع المعروضة حبوبًا وفولًا وطحينًا وتمرًا تتهادى عليه الذبابات، مع طماطم وخيار، وبضع جذورٍ من المنيوك (الكسافا) جُلبت من مكانٍ لا يعلمه إلا الله. غير أن ما فاجأنا كان وجود صناديق أنيقة تحتوي على تفاحٍ أحمر لامع مستوردٍ من إيطاليا عبر جدة، وأخرى من الأطعمة المعلّبة القادمة من أمريكا، كأنما أرادت القرية أن تضع قدمًا في القرن العشرين وأخرى في القرون الوسطى.
جلس الباعة على أعقابهم خلف بضاعتهم، تبدو على وجوههم غفوةٌ حالمةٌ أو تأملٌ بليد، كأن الزمن هنا ينساب ببطءٍ لا يعنيهم. لم نرَ عمّالًا أو حرفيين إلا القليل: إسكافيان أو ثلاثة ينحنون فوق نعالٍ جلدية خيّطونها بخيوطٍ غليظة، وصائغون يعملون على منافيخ فحمٍ صغيرةٍ يُغذّونها بهواءٍ من منفاخٍ يحركونه بإبهام أقدامهم بدهشةٍ مذهلة.
أما البدو الرحّل، فإن مدينة الليث بالنسبة إليهم هي العاصمة الكبرى. فهذه المقاطعة، التي تجاور الحجاز وتُعدّ من أكثر مناطق الجزيرة العربية سكانًا، نادراً ما تعرف التجمعات البشرية الكبيرة؛ إذ تفصلها عن

أقرب المدن ـــ جدة، القنفذة، مكة، والطائف ـــ مسافاتٌ تتجاوز المئة ميل لا يقطعها سوى فراغ الصحراء الأبدي.

في هذه المدينة يجد أبناء الرمال سوقًا يبتاعون فيه الأرز والحبوب، الإبر والشاي، ومقتنياتٍ صغيرة تُعيد إليهم طعم الحياة المدنية. إنها ملاذهم بعد الشهور الطويلة من الترحال القاسي، بين المراعي النائية والينابيع الشحيحة، عبر طرق القوافل التي لم تتبدّل منذ قرون. بالنسبة إليهم، الليث هي الفردوس الأرضي؛ بضع نخيلاتٍ هزيلةٍ وأربع عشرة بئرًا تمثل لهم نِعمةً تفوق الوصف، بعد أن ألفوا الينابيع المالحة أو الموحلة، بل والآبار الجافة أحيانًا.

هنا يستريحون، يبسطون أرديتهم البالية بفخرٍ في الأزقة المظللة، ويتمددون على الحصير داخل المقاهي البسيطة حيث ينعمون بالشاي الأخضر المغلي المحلّى بالسكر، الذي يُعدّه صاحب المقهى فوق موقدٍ ترابيٍّ صغير. يجلسون بالساعات، يستمعون بشغفٍ إلى الرواة الشعبيين الذين يسردون مغامراتٍ وأشعارًا بأسلوبٍ أسطوري، فتلمع أعينهم ببريقٍ طفولي، وتتردد فجأة قهقهاتهم البرية الكاشفة عن أسنانٍ بيضاء حادة كالذئاب.

عند عودتنا إلى القصر قرابة الظهيرة، قدّم لنا مبروك ـــ خادمنا الأسمر الوفي ـــ طعامنا على الأرض كما جرت العادة: طبقٌ واسع من الأرز الملوّن بالزعفران، تعلوه قطعٌ من لحم الضأن اليابس قليل الدهن، وإلى جانبه أقراصٌ من العجين غير المختمر. كان الطعام لذيذًا على فقره، ولم يعكر صفوه إلا الذباب الذي يتهاوى بإصرارٍ فوق الأرز، حتى ليصعب بلع اللقمة دون بلع أحدها معه.

لم تصلنا أنباء عن الرسول الموفد إلى الداخل. فَقَضَيْنَا ساعات الحرّ القاتلة في ظلال القصر، ثم خرجنا من جديد حين مالت الشمس لنتجول بين الناس القلائل. كانت تلك هي الليث، قرية الصحراء الكبرى، تمتزج فيها الظلال العميقة بضوءٍ صلدٍ قاسٍ، وتحرسها الجِمال الوادعة في سكونٍ مهيب.

وفوق الرؤوس تحوم النسور والرخم، عمالُ النظافة الأوفياء في هذا العالم البدوي الصامت. ومن بوابةٍ عريضةٍ لأحد الدور الطينية عديمة النوافذ خرج ركبٌ مهيب من الجمال، نحو اثنتي عشرة دابة، تحمل قربًا من جلد الماعز منفوخة بالماء العذب، وأكياسًا ممتلئةً بالأرز والذرة. كان بعض البدو يتفقدون بعنايةٍ كل رباطٍ في الأحمال وكل عروةٍ في اللجم، كأن حياة البشر جميعًا معلّقة على هذه التفاصيل الصغيرة ـــ وحقًا هي كذلك في ذلك المحيط اللامتناهي من الرمل والصخر.

كنا نرجو أن نغادر ذلك اليوم، لكن الظلال كانت قد بدأت تطول، وصوت المؤذّن ارتفع من قمة المئذنة ـــ ذلك الصوت النافذ الحلق، الأجش، العميق الذي يدعو المؤمنين إلى الصلاة. عندها عدنا ببطءٍ إلى حصننا الحجري. كانت سكينة الحياة البدوية قد بدأت تتسلل إلى أعماقنا، وتبدّل مقاييسنا للأشياء، حتى شعرنا بأننا نعيش زمناً خارج الزمن، كأن القرون لم تمضِ منذ أيام الأنبياء.

> «وجاؤوا إلى إِيلِيم، حيث اثنتا عشرة عين ماء، وسبعون نخلة؛ فنزلوا هناك عند الماء»
(سفر الخروج 15: 27)

إيليم... الليث... ما الفرق بينهما؟ فكلاهما واحة في فلاةٍ بلا نهاية، وكلاهما ظلّ وطمأنينة في وجه العدم.

ضيوف أم أسرى؟

في صباح اليوم التالي بدأ الانتظار الطويل العقيم من جديد. كان الوقت يمضي ببطءٍ قاتل، والقلق أخذ يتسلّل إلى نفوسنا. الأمير لم يظهر، والشيوخ المكلّفون بمرافقتنا كانوا يجيبون عن كل سؤال بتلك الجملة ذات النغمة الواحدة:

> "لا نعلم شيئًا عن رحلتكم... انتظروا، سيخبركم الأمير."

أما دوباس فكان لا يفتأ يسأل بنفاد صبر:

> "ومتى سنغادر؟ متى؟"
فيأتيه الجواب ذاته، بابتسامةٍ وادعةٍ تخفي غموضًا عميقًا:
"انتظروا، انتظروا... سيقول الأمير."

خرجنا من جديد نتجوّل على طول السوق الصغيرة (السويّ)، وجلسنا على الحصير في ظلال المقاهي العربية، حيث كان دوباس يحادث البدو المبتسمين الذين يتسامرون في لا مبالاةٍ مريحة. وفي الخان (الخُرْبة أو القافلة) أطلنا الوقوف بين الإبل الراقدة، نراقبها بشيءٍ من الحنين إلى السفر الطويل الذي تمثّله. كان دوباس يمرّر يده على الربلة الجلدية أو الحبل المجدول أو على سنامٍ مرتفعٍ صلبٍ، وكأنه يلامس حلمًا ضائعًا من مغامرات الصحراء.

كنا أحرارًا في حركتنا ظاهريًا — ننتقل بين الأزقّة، والنخيل، وبقعة الواحة الصغيرة التي لا تتجاوز ميلاً مربعًا واحدًا — لكننا لم نكن وحدنا قط. كان يرافقنا دومًا حارسٌ مسلّح حتى الأسنان، تتدلّى على خاصرته المسدسات والسيوف.

في البداية رحّبنا بصحبته، إذ رأينا فيها علامة كرمٍ وحماية، كما أنها سهّلت علينا التواصل مع الناس. لكن مع مرور الأيام، وبعد أن فرغت الأحاديث وتكرّرت المشاهد، بدأت تلك المرافقة تتحوّل إلى عبءٍ ثقيلٍ على أعصابنا.

كان دوباس يلمّح بأدبٍ إلى أننا نرغب في التجوّل وحدنا، لكن الحارس كان يبتسم دائمًا بتلك الابتسامة المشرقة التي تخفي صرامةً لا تُناقش، ويردّ بعبارةٍ واحدة:

> "البدو... خطرون، خطرون جدًا."

ثم يرفع يده مشيرًا بحركةٍ سريعةٍ نحو عنقه ـــ إشارةً واضحة إلى ذبحٍ محتملٍ لو أننا تجرأنا على الابتعاد.

هكذا، بدأنا نتساءل في أعماقنا:
هل نحن ضيوف الأمير المكرَّمون... أم أسرى مجاملةٍ لبقةٍ في قصرٍ جميلٍ تحرسه العيون؟

"يا له من نفاق!" تمتم دوباس ساخرًا.

في الليلة السابقة كان الناس يسألوننا مرارًا وتكرارًا:

> "أنتم أطباء؟"

ولخيبة أملهم، كنا نجيب دائمًا بعبارةٍ مقتضبةٍ بالعامية العربية التي التقطناها في رحلاتنا:

> "طبيب؟ لا... لسنا أطباء."

حاول دوباس أن يشرح لهم أن على متن السفينة (البابور) يوجد طبيبٌ حقيقي، وأنه عندما تعود السفينة لاصطحابنا يمكنهم الذهاب إليه لتلقّي العلاج، لكنّ الوجوه لم تُبدِ اقتناعًا. كانوا يريدون أكثر من وعودٍ مؤجلة. وقد رأينا نحن بأعيننا الكثير من القروح والقُرحات والجروح المتقيّحة التي كنّا نتمنى لو نستطيع علاجها حقًا.

في أمتعتنا كان هناك صندوق طبي أنيق يحتوي على أدواتٍ وأمصالٍ وأدويةٍ كثيرة. لقد كانت فرصةً مثالية لاستخدامه، غير أننا نجهل الطب تمامًا، فلم نجرؤ على وصف علاجٍ فعليّ. اكتفينا بتوزيع الميركروكروم ومساحيق السلفا ومحاليل الأرغيرول، أما الحالات التي لم نفهم طبيعتها فقد داويناها بالأسبرين أو الكينين، فهما لا يضران أحدًا، وربما يجلبان بعض الراحة المعنوية للمريض.

لكن مدينة الليث كانت تملك بالفعل طبيبًا رسميًا، وقد تعرّفنا إليه ذات صباح. كان مالاويًا من أصلٍ جاويّ، يتحدث إنجليزيةً مفهومةً على نحوٍ معقول. تحت طاقيته البيضاء المحشوة بالحرير بدا وجهه ضيقًا كوجه ابن عرس، جامد الملامح، ينضح بالريبة والحذر.

سألنا بعينين ضيقتين:

> "أنتم أطباء؟"

ولما أجبناه بالنفي، أعاد السؤال بإصرارٍ أكثر:

> "ولا واحد منكم طبيب؟ لا؟"

وحين تأكد من جوابنا، بدا عليه الارتياح الشديد، وسمح لنا بدخول عيادته التي كانت لا تزيد عن فراشٍ صغيرٍ، وخزانةٍ تحوي بعض القوارير، وحقنةٍ معدنية، وأداةٍ للحقن مطليةٍ باللون، ودفتر حسابٍ كبير يسجّل فيه شيئًا يشبه الفواتير أكثر من السجلات الطبية.

خرجنا ونحن نتبادل النظرات، فقال نيستروف بسخريةٍ مكتومة:

> "هو طبيبٌ بقدر ما أنا طبيب!"

كان واضحًا أنه عمل في بلده الأصلي كمعاونٍ صحيٍّ متواضع، ثم جاء يومًا حاجًّا إلى مكة، ولم يغادر بعدها هذه البلاد السعيدة حيث يُمارس الطبّ بجرأةٍ أكثر من علم، وبالادّعاء أكثر من الشهادات.

في اليوم التالي، بدأ الانتظار الطويل والعقيم من جديد، وكان ذلك الانتظار قد بدأ يرهق أعصابنا ويثير قلقنا. ظلّ الأمير في عزلة تامة لا يُرى له أثر، أما الشيوخ الذين يتناوبون مرافقتنا فقد أكدوا جميعاً أنهم لا يعرفون شيئاً عن بعثتنا. وكان دوباس لا يفتأ يكرّر السؤال نفسه بلهجة تزداد ضيقًا:
"ولكن متى سنغادر؟"
فلا يأتيه سوى الجواب نفسه في كل مرة:
"انتظروا، انتظروا... الأمير سيخبركم."

حلّ الليل مرة أخرى، وعدنا إلى حصننا الإقطاعي، ممدّدين على السجاد الفاخر. كان أحدنا يقرأ رواية دير بارما (La Chartreuse de Parme)، وهي الكتاب الوحيد الذي جلبناه معنا، فيما كان الآخران يحدّقان في السقف غارقين في التفكير. كانت مصباح الكحول يهمس بنغمة رتيبة، والهواء خانق، فأغلقنا الأبواب والمصاريع — إذ لا نوافذ في تلك البلاد الحارّة — ورششنا المكان بمبيد DDT، فإذا بالذباب يتساقط متلوّيًا على ظهره.

قال دوباس فجأة وهو يزفر ضجرًا:
"الأمير لا يكترث لأمرنا إطلاقًا!"

فأجبته:
"صدقت، تمامًا كما أرى!"

وبالفعل، بدا أن التأخير تجاوز الحدّ المعقول. مضت يومان ونصف، ولا مؤشرات على أي استعدادٍ للرحلة. ظل الأمير متواريًا عن الأنظار، وابتسامات شيوخه لم تعد تخفي مللنا من مرافقتهم المستمرة كلما غادرنا الأبواب.

قال دوباس وهو ينظر إلى الأفق:
"حسنًا، سنرى ما سيحدث غدًا. فإن لم يأتِ خبر، فسنقرّ بالأمر الواقع، وحين تصل كاليبسّو بعد غد، سنعود إلى متنها."

استعددنا للنوم. كان الجوّ خانقًا في الغرفة المغلقة، وبين حرارةٍ خانقة ولسعات البعوض، فضّلت الثانية، فخرجت إلى الشرفة لأستلقي تحت السماء. كان الفضاء الصافي متلألئًا بملايين النجوم، والنسيم الدافئ يلامس وجهي في رفق. وأنا ممدد على ظهري أحدّق في هذا الاتساع الباهر، غمرني شعور عجيب باللانهاية والسكون الأبدي.

أنمكث هنا أو أذهب إلى الداخل، أرحل أو أبقى ـــ ما الفارق؟ كنّا مجرّد كائناتٍ حسّاسةٍ صغيرةٍ، ممدّدةٍ بين السماء والصحراء. شعلة حياتنا الوجيزة ستنطفئ سريعًا، ثم ماذا بعد؟ لقد كانت صحراء الجزيرة تفرض على روحي فلسفتها الأبدية ـــ الاستسلام والقدر.

ومرّت الساعات في حلمٍ دافئ لا يقطعه سوى نهيق حمار، أو أزيز بعوضة، أو نباح كلبٍ وحيدٍ في البعيد.

وفجأة، سمعت قهقهاتٍ عالية وأصواتًا مبهمة تنبعث من فناء القلعة الداخلي. لم نكن نعلم الكثير عمّا يجري داخل تلك القلعة المشيّدة من الطين والحجر، التي كانت في آنٍ واحد قصرًا ومقرًّا للحكم وثكنةً عسكرية. تكرّرت الضحكات، واختلطت الآن بصيحاتٍ لم أتبين معناها. نهضت من مكاني، وطللت من حافة الشرفة.

وعند أسفل البرج الجنوبي الشرقي، كان بابٌ مفتوحٌ يرسل خيطًا من الضوء الأصفر إلى العتمة. انتعلت نعليّ، ونزلت بخطى هادئة. عبرت الفناء في صمت، اقتربت من الباب دون صوت، وفجأة توقفت مذهولاً أمام مشهدٍ غريبٍ لم أكن أتوقعه !!
في ضوء المصباح الزيتي المتوهّج بلونٍ أحمر باهت، كانوا جاثمين على الأرض الصلبة التي داستها الأقدام طويلًا ـــ نحو اثني عشر رجلًا، ذوو لحى كثيفة وعيون متألقة، أجسادهم هزيلة تحت أسمالٍ متّسخة. جلسوا في حلقةٍ ضيّقة على أعقابهم، جذوعهم منحنية إلى الأمام، وأحد أيديهم مرتخية بين الركبتين، بينما اليد الأخرى مشدودة في نهاية ذراعٍ نحيلة تستند على الركبة. كانوا يلعبون لعبة حظ غامضة لا نفهمها، وكان كلّما فتح أحدهم راحته تنفجر بينهم الصيحات والضحكات.

لكن ما جمد الدم في عروقي هو هذا المشهد: جميع أولئك البؤساء، المجتمعين في بئرٍ دائرية من القلعة كأنهم "اللصوص الأربعون" في مغارتهم، كانوا مشدودين بعضهم إلى بعض بسلسلةٍ حديدية ثقيلة، تتدلّى

من العنق إلى العنق في حلقاتٍ لامعة. أما الأول والأخير منهم، فكانا جالسين على الأرض وقد مدد كلٌ منهما ساقه أمامه، والكاحل محشور في قيدٍ خشبيٍّ مثبتٍ بالجدار، مكوّنٍ من كتلتين سميكتين صقلهما الزمن بطول الاستخدام. وخلف الرجال كانت تتحرك ظلالهم الضخمة المأساوية على الجدار الأحمر المنحني، كأنها كائناتٌ مستقلةٌ عنهم لها حياةٌ أخرى.

كان المشهد أسطوريًا، مفعمًا بالقسوة، حتى خُيّل إليّ أنني أعيش فصلاً من أسطورةٍ قديمة. مكثت هناك طويلًا، مسمّرًا بين الخوف والذهول، كما ينصت طفل إلى حكايةٍ مرعبة. وأخيرًا، وبجهدٍ إراديٍّ مؤلم، انتزعت نفسي من مكاني، وذهبت أوقظ رفيقيّ لأريهما السجن. لم يكن ما رأيته حلمًا أو خيالًا — فالمنظر الكئيب لم يتبدّد. كان "اللصوص" ما زالوا هناك، في مغارتهم، منهمكين في لعبتهم الغامضة، تتلألأ سلاسلهم المعتمة كأنها ترسم رموزًا سحرية في ضوءٍ يشبه لوحات رامبرانت الموحية بتباين الضوء والظل، بينما في الخلفية كانت الظلال العملاقة تواصل رقصتها الصامتة.

وفي اليوم التالي، رأيناهم من جديد في ضوء النهار، أولئك الأسرى وغيرهم. كانوا نحو ستين رجلًا، بعضهم في مقتبل العمر، وبعضهم في أرذل العمر. كان الشيوخ بلا قيود، أما الباقون فكانوا مقيّدين بسلاسل ثقيلة تلتف حولهم في حلقات. رأيناهم يتجوّلون في فناء القلعة يجمعون قطع الخشب لإشعال نارهم، ورأيناهم يذهبون إلى كومة قمامة لقضاء حاجتهم، ثم يأكلون وينامون، لا يفترقون لحظةً عن بعضهم، ولا يرفعون عن أعناقهم ثقل الحديد.

هكذا اكتشفنا أن لنا جيرانًا، لكنهم جيران من زمنٍ آخر — أسرى من عصورٍ وسطى غابرة. وما زال السؤال يحيرنا: ما الذي اقترفوه ليُعاقَبوا بمثل هذا المصير القاسي؟

خاطر دوباس وسألهم — بجرأةٍ وفضولٍ — عن ذنبهم. وبوساطته علمنا أن بينهم قتلةً، ومتهربين من الضرائب، ومدينين عاجزين عن السداد...
كان من المؤكد أن بعضهم أبرياء — كما هو الحال في كل السجون. غير أن أكثر ما أثار دهشتنا هو أن كثيرين منهم كانوا هناك بتهمة الزنا.

قال دوباس موضحًا:
«عليك أن تفهم أن القرآن يبيح لكل مؤمن أن تكون له أربع زوجات شرعيات، بالإضافة إلى ما شاء من الجواري، ولكن أن يأخذ رجلٌ زوجةَ رجلٍ آخر — فذلك محرَّمٌ تمامًا.»

ومع ذلك، فإن عدد العرب القادرين على تحمّل نفقات التعدّد قليل، في حين أن إغراء الوقوع في الخطيئة التي تفضي بصاحبها إلى هذا المكان قويٌّ جدًا.

أما اللصوص، فلم نجد بينهم أحدًا. فالسرقة في جزيرة العرب تكاد تكون منعدمة، لأن العقوبة فيها رادعة إلى أقصى حد. فعندما يُصدر الحاكم حكمه، يستدعي الجلاد الذي يتولى قطع يد الجاني، ثم يُغمس الجرح في الزيت المغليّ لوقف النزيف. أمّا إن كانت السرقة جسيمة، فيُقطع كلا اليدين.

ولم يكن يُفرض على السجناء عملٌ محدّد؛ فقد حُرموا من الحرية فحسب. وكانوا يُعدّون وجبة واحدة في اليوم — قليل من الأرز والسمك — ثم يقضون بقية الوقت جالسين في زاويةٍ ظليلة، يتبادلون الحديث أحيانًا، ويغرقون في الصمت أو التأمل أحيانًا أخرى. وعندما كان المؤذن يرفع نداء الصلاة، كانوا يؤدّون وضوءهم بطمأنينةٍ ورسوخ — يغسلون أقدامهم وأيديهم ووجوههم وعوراتهم — ثم، غير مبالين بثقل قيودهم، يتوجّهون نحو مكة القريبة شمالًا، رافعين إلى الله الواحد المسبّحات والترانيم. كانت السلاسل تطنّ رنينًا معدنيًا مع كل حركةٍ وهم يركعون ويسجدون، يقبّلون تراب الأرض المتّقد بحرارة الشمس، ثم ينهضون ليعودوا إلى السجود، جباههم تلامس الأرض، وأذرعهم ممدودة في اتجاه المدينة المقدسة.

وعند الغروب كانوا يعودون إلى زنزانتهم، فيأتي الحرّاس ويقفلون بالأقفال الحديدية اليوكَيْنِ الخشبيين اللذين يثبتان ساقي الرجلين المربوطتين في طرفي السلسلة. وبذلك لا خوف من أي محاولةٍ للهرب.
ولكن إلى أين، بحق الله، كان يمكن لهؤلاء البؤساء أن يفرّوا، حتى لو استطاعوا الخروج من الحصن؟ إلى الصحراء الممتدة بلا رحمة، التي تهلك الرجل الأعزل، أم إلى البحر الواسع الذي لا سبيل لعبوره؟

عندئذٍ، ازددنا تصميمًا على العودة إلى السفينة كاليبسو في أسرع وقت، لا لأننا سئمنا الانتظار فحسب، بل لأننا أصبحنا على يقين بأن قوى خفيّة كانت تعمل على إحباط رحلتنا المزمعة...
لم يكن دافعنا إلى مغادرة المكان خشية أن تُجهض رحلتنا إلى الداخل فحسب، بل لأننا بدأنا نشعر بخوفٍ غامض من أن وضعنا الحالي في البرج قد يتبدّل عمّا قريب إلى ما هو أسوأ. ولم نكن قطعًا نرغب في أن نتقاسم مصير نزلاء الطابق الأرضي — مهما بلغت القيمة الإثنوغرافية لذلك.

كانت أيامنا الثلاثة في اللِّيث متشابهة إلى حدٍّ كبير، باستثناء أننا حظينا في اليوم الثالث برؤية الأمير مرةً أخرى. وعندما ألحّ دوباس عليه بالأسئلة، أجابه الأمير بجفاءٍ ملحوظ بأن علينا الانتظار، إذ لم يعد المرسال بعد، لكننا «غدًا دون شك» — كما قال — سنتمكن من الانطلاق نحو الجبال.

كان من المقرَّر أن تعود السفينة كاليبسو في اليوم التالي لتتحقّق من أخبارنا، وقد اتُّفق مسبقًا على أنه إن لم نجدها في الخليج — أي إن كنا قد خرجنا إلى رحلتنا — فإنها ستعود بعد أربعة أيام، وإن اقتضى الأمر، بعد أسبوعٍ أيضًا.

وعندما ظهرت كاليبسو في الأفق عند الموعد المحدد، لم يكن للأمير سعد بن الشيخ أثر. أخذ دوباس يناقش ثلاثة من رجال بلاطه الذين صادف وجودهم هناك، متوسلًا إليهم أن يذهبوا لاستدعاء الأمير أو على الأقل أن يستأذنوا منه بالسماح لنا بالمغادرة، بينما كنتُ ونيستروف نراقب من الممر المرتفع عبر المنظار السفينة البيضاء وهي تقترب بثبات من الساحل.

وأخيرًا، تكرّم الأمير بالظهور. فراح دوباس يتوسل إليه في لطفٍ شديد أن يُقرضنا شاحنةً تُقلّنا إلى الميناء مع أمتعتنا قبل أن تعود كاليبسو أدراجها.

قال الأمير مستغربًا:
«ولِمَ العجلة؟ غدًا بلا شك تصل جمالكم، وستتمكّنون من الرحيل...»

لكننا كنا نعرف تلك الوعود جيدًا، فـ«غدًا» عندهم تُعاد كل يوم.
ومع ذلك لم يفقد دوباس صبره، وظلّ مهذبًا ومُصرًّا:

«يا أمير، لو كنا سنغادركم، فذلك على كرهٍ منّا. لقد غمرتنا كرمُ ضيافتكم، غير أن الوقت لم يعد في صالحنا، ولن نستطيع تنفيذ خطتنا كما كنا نرجو. للأسف علينا الآن الرحيل... ولكننا سنعود.»

قال الأمير، متصنّعًا الدهشة:
«أتغادرون الآن؟ ألم تقولوا إنكم تعتزمون البقاء في هذا البلد أسبوعين؟ هل أزعجكم شيء؟ هل قصّر أحد في خدمتكم؟»

«كلا، يا أمير، كانت ضيافتكم كاملة...»، أجابه دوباس بلباقةٍ طويلةٍ امتدت على نمط الحديث الشرقي.

وفي تلك الأثناء، كانت كاليبسو قد بلغت الخليج، وتوقّفت، فرأينا زورقها الصغير يتجه نحو الشاطئ، ثم يعود أدراجه بعد قليل. كانت السفينة، من خلال المنظار، تبدو واضحةً على بعد أربعة أميال، قريبة في الرؤية بعيدة في المنال. توقفت قليلًا، ثم استدارت ببطءٍ وبدأت الإبحار من جديد نحو عرض البحر. حين اتجهت كاليبسو نحو الجنوب الغربي، أيقنّا أن رحلتنا المزمعة إلى الداخل لن يُؤذن لنا بها أبدًا. عندئذٍ وجدنا أنفسنا أمام خيارين لا ثالث لهما: إمّا أن ننتظر ببرودٍ فلسفي عودة رفاقنا، آملين ألّا يمدّ الأمير ضيافته إلينا إلى ما لا نهاية، أو أن نهرب. وهكذا بدأنا نضع خططنا.

وعند التأمل، لم يكن الهرب في ذاته بالأمر المستحيل، ما دامت مكانتنا في القلعة كما هي، وما دمنا مستعدين للتضحية بما معنا من أدواتٍ ثمينة: الكاميرات، وأجهزة التصوير، وأكياس الريالات الفضية الثقيلة. كانت آلاتنا التصويرية عزيزة علينا عزةً بالغة، وكذلك أفلامنا التي التقطناها وسط كثيرٍ من المشاق والمغامرات. كنتُ شخصيًا قد تمكّنتُ — خلسةً ودون أن أثير ريبة الحراس — من التقاط عدة صورٍ لسلسلة الأسرى المقيدين، ولم أستطع احتمال فكرة أن أترك تلك الوثائق النادرة تضيع هكذا.

اتفقنا جميعًا على ألّا نحاول الهرب إلا إذا حال الأمير دون اتصالنا بالسفينة مرةً أخرى بعد أربعة أيام. وفي تلك الأثناء، كنّا نتسلى بوضع خطة الهروب بأدق تفاصيلها، كما يضع المرء خطة انتقامٍ مُتقنة.

كانت الخطة حتى بلوغ الخليج محكمة: نغادر القلعة عند الغروب بحجة التنزه الأخير قبل النوم، ونتجه نحو بستان النخيل المهجور في تلك الساعة، وهناك نُجهز بصمتٍ على الحارس المرافق لنا، ثم نركض بأقصى سرعتنا نحو البحر. كانت المسافة ثلاثة أميال فقط — أي نحو أربعين دقيقة من الجري — ولن يكون الإنذار قد أُطلق بعد.

لكن العقبة الكبرى كانت في الوصول إلى جزيرة الليث الواقعة على بُعد ثمانية عشر ميلًا في عرض البحر. فإذا استطعنا العثور على قاربٍ محلي فسيكون الأمر سهلًا، أمّا إذا لم نجد، فلم يكن أمامنا إلا خيارٌ واحد: أن ننفخ فرشاتنا المطاطية ونستلقي عليها على بطوننا، دافعينها بأيدينا فوق الماء في ظلمة الليل.

غير أنّ هذه الخطط لم يُكتب لها التنفيذ، إذ أذن لنا الأمير أخيرًا بالمغادرة في اليوم الثامن. وحتى اللحظة الأخيرة ظلّ متمسكًا بمسرحية الإقناع، يحاول إظهار الأمر كأنه يُلِحّ على ضيوفه بالبقاء. قال لنا: «ألستم سعداء هنا؟ لِمَ هذه العجلة؟ ستُجهّز قافلتكم من الجمال قريبًا، فلماذا لا تنتظرون؟ إن رغباتكم أوامري!»

أجابه دوباس شاكرًا ومتحفظًا، مؤكدًا امتناننا العميق لكرمه، لكنه ألمح بلُطف إلى أن أصدقاءنا الروس ينتظروننا...
تلك الجداول الزمنية الصارمة التي يلتزم بها الروس حالت دون بقائهم معنا بالقدر الذي يرغبون فيه، وهكذا انتهى كل شيء بأدبٍ كامل وهدوءٍ رسمي—لكن من غير لحظةٍ فاصلةٍ محددة، ودون أن يتطرق أيٌّ من الطرفين إلى الحقيقة الجلية: أن طلبنا بالسفر في أراضي العرب قد رُفض صراحةً، وأننا كنا على وعيٍ تام بذلك.

نعم، لقد كان البروفيسور لامار على حقٍّ تمامًا حين كتب في مقدمة كتابه البنية الجيولوجية لشبه الجزيرة العربية—وهو الكتاب الذي كنا نتصفحه في قلعتنا الحصينة، ونحن نطيل النظر في المساحات البيضاء التي لا تزال تنتظر من يملأها على خريطة البلاد—قائلًا:

> «ليست شبه الجزيرة العربية أرضًا يسهل الحصول فيها على إذنٍ للسفر. فالتسعة أعشار من يطلبون ذلك يُرفضون، وحتى القلة النادرة التي تنال الموافقة لا يُسمح لها بالتجوال بحرية حيث تشاء. فالرُّحلة تُحدَّد مساراتها لجميع المسافرين مسبقًا، وأي رغبةٍ في زيارة أماكن أخرى تُعدّ في نظر السلطات ضربًا من الفضول المريب، وتُقابَل دومًا برفضٍ مهذبٍ لكنه قاطع.»

كم كان هذا القول صادقًا! لقد قرأتُ تحذير لامار قبل رحلتنا، غير أن السهولة التي حصل بها كوستو على تلك التصاريح الرسمية الممهورة بالأختام في جدة، والاستقبال الودود الذي لقيناه من أمير الليث، قد ملأنا بتفاؤلٍ أدرك الآن كم كان ساذجًا.

لكن هل كان السبب في ما ألمّ بنا من سوء حظّ هو الحسّ الوطني العربي المرهف وحده؟
عندما عدنا إلى باريس، سمعنا أن أحد الجيولوجيين العاملين في شركة أرامكو كان قد علم مصادفةً برغبتنا في القيام برحلةٍ استكشافية، فسارع إلى الضغط على السلطات السعودية لمنعنا من ذلك. وكانت تلك المطالبة الأجنبية منسجمةً تمامًا مع النزعة الطبيعية لدى العرب في التحفّظ والريبة، فاستُجيب لها فورًا.

ومع ذلك، لا بدّ من الاعتراف بأنهم «صرفونا» بأقصى ما يمكن من اللباقة والاحترام.
وخلال الأيام الأخيرة من إقامتنا، نظّم لنا الأمير رحلةً بالسيارة إلى الصحراء.
كم حلمنا بذلك طويلاً! رحلة إلى الصحراء!
صعدنا إلى سيارة فورد موديل 1938 ونحن طافحون بالفرح، وسارت بنا قرابة الألف وخمسمائة ياردة فقط، قبل أن يتوقف السائق فجأةً، ليشرح لنا بدهشةٍ واعتذار أنّه غير مخوَّلٍ بالذهاب أبعد من ذلك—خشية أن تعلق السيارة في الرمال أو ما إلى ذلك من الأعذار.
وكان الأمير، بين حينٍ وآخر، يُلمح لنا بانه لا يرغب أن نعاني من الملل، فكان يحرص على إشراكنا في بعض أنشطته. ومن ذلك أنه دعانا ذات يومٍ إلى «رحلة صيد» — أي، في الحقيقة، إلى أن نرافقه هو وحاشيته بينما يقوم هو بالصيد بنفسه! وقد يكون الفرق بسيطًا في الظاهر، لكنه كان واضحًا لكل من يعرف متعة الصيد.

ومع ذلك، فقد كان الأمير، على نحوٍ مدهش، صيادًا ضعيف المهارة. وكانت وقاره وهيبته يمنعانه من التعامل مع الطريدة إلا وهو منتصب القامة، واقفًا في وضعٍ رسميٍّ متصلب. أما طيور البحر التي كان يسعى إلى اصطيادها، فقد كانت تُقدّر هذه الوقفة المهيبة، فكانت تطير مبتعدة قبل أن يدخل في مرماها. ولأنه لا يطلق النار إلا على الطيور الجاثمة، كان عليه غالبًا أن يقطع طول الشاطئ سيرًا على قدميه ليجد هدفًا ثابتًا. وكلما قرر أن يجرب حظه، أخذ وقتًا طويلًا في التصويب... ثم أخطأ الهدف.
وخلال ثلاث جلساتٍ امتدت كلٌّ منها قرابة الساعة، لم يُصب سوى طائرٍ صغيرٍ واحد فقط.
كان من المدهش أن نرى بأعيننا هذا المشهد، نحن الذين كنا
نعتقد دائمًا أن فرسان العرب رماةٌ بارعون!
لكن اتضح أن الأمر لا ينطبق على الجميع.

وفي إحدى المرات منحنا الأمير مشهدًا طريفًا لم يقصده. فبعد رحلة صيدٍ أخرى انتهت بلا جدوى، جلسنا جميعًا متربعين على السجاد المفروش على الأرض، وكنّا قد فرغنا من احتساء الأكواب الثلاثة التقليدية من الشاي التي قدّمها لنا أحد العبيد، حين بسط الأمير ساقيه فجأة، وتمدد على ظهره — في هيئةٍ لا تتفق إطلاقًا مع تلك الوقار المهيب الذي يحرص دائمًا على إظهاره.
عندئذٍ، ناوله أحد رجال حاشيته بندقيةً حديثة — بندقية بلجيكية من عيار اثني عشر، ذات نظام تلقيم متكرر من أحدث الطرازات — بينما انتزع أحد الشيوخ عمامةَ أحد العبيد الواقفين قربه، ولفّها بسرعة في شكل كرةٍ قاسية، وانتظر حتى أخذ الأمير وضع التصويب، ثم قذف بها بكل قوته في الهواء...
فانطلق صوت الطلقة في اللحظة نفسها.
هزّ دوباس رأسه في دهشةٍ وامتعاض وقال ساخرًا:
«ها هو أمير تاراسكون يصطاد العمائم!»

— في إشارةٍ طريفة إلى شخصيةٍ ساخرةٍ من الأدب الفرنسي، تارتاران دو تاراسكون، الذي كان يصطاد أوهامًا أكثر مما يصيد فرائس.

علم المحيطات

كان من الممتع أن نجد أنفسنا من جديد في جزيرة الليث، أحرارًا في الحركة كما نشاء. لقد كان زملاؤنا قد أوشكوا على إتمام مهامهم المختلفة؛ ولم يتبقَّ سوى جمع عددٍ قليلٍ من العينات الإضافية.
كانت الكالِبسو ترسو مجددًا على بُعد نحو ميلٍ واحد من المعسكر، وعمليات الغوص كانت تجري على نحوٍ متواصل.

كان غيلشر (Guilcher) يدون ملاحظاته بعنايةٍ دقيقة، لا عن تضاريس الجزء المرتفع من الجزيرة فحسب، بل كذلك عن الامتداد المستوي الواقع تحت سطح الماء مباشرة.
كان منظره من بعيد أشبه بخطٍّ نحيلٍ متحرك، يحمل دفتر ملاحظاته بيده، ويواصل عمله في صبرٍ لا يتغير، يدخل الماء حينًا، ويخرج منه حينًا آخر، بخطواتٍ هادئة متزنة لا تعرف العجلة.

كان الشريط المستوي المحيط بالجزيرة على هيئة حلقةٍ زمردية يبلغ عرضها في بعض النقاط نحو مائتي ياردة. غير آبهٍ بأسماك القرش أو اللخمة، كان غيلشر يخوض في الماء إلى مستوى ساقيه، وأحيانًا حتى خصره، ليتخذ القياسات الدقيقة في كامل المنطقة المتاحة.

وكان من حسن الحظ أن ذلك الشريط المستوي يرتفع قليلًا قبل أن ينتهي، مما أتاح له أن يقف على حافته، شبه المكشوفة من الماء، ليدرس تفاصيل حافة الشعاب المرجانية بدقةٍ علمية. ومن بعيد، كان المشهد في غاية الطرافة: رجلٌ جادٌّ ممعنٌ في عمله، يبدو للناظر كأنه يسير فوق سطح الأمواج!

كما فحص غيلشر أغلب ما يُعرف بين البحارة باسم «رؤوس الزنوج»، وهي قممٌ صغيرة من المرجان ترتفع فوق سطح الماء عند الجَزر، وقد ماتت بعد أن جفّت عنها المياه. وكان، لعدم ثقته الكاملة بالصور الفوتوغرافية، يرسمها بنفسه بريشةٍ دقيقةٍ أنيقة، مستعينًا بملاحظاته المباشرة.

وتُظهر هذه الرؤوس المرجانية الجافة مدى تغيّر ما نظنه مستقرًّا — سطح البحر. فالمستويات المتفاوتة للصفائح المرجانية المنحوتة بفعل التآكل، التي نراها على هيئة حوافَّ بارزةٍ متدلية، تمثل آثارًا جيولوجيةً متعاقبة، إذ تشهد كلُّ حافةٍ منها على مستوى سابق لسطح البحر حين كان التآكل يحدث عند تلك النقطة تحديدًا.

فمستوى المحيط — كما أثبتت دراسات غيلشر الدقيقة — ليس ثابتًا أبدًا، بل في حركةٍ دائمة بين ارتفاعٍ وانخفاض، نتيجة لعوامل جيولوجية ومناخية معقدة لا تنفك تغيّر وجه هذا العالم الأزرق.

لقد تغيّر مستوى المحيطات تغيرًا هائلًا عبر العصور الجيولوجية. فالتبدلات المناخية التي كانت، خلال بضعة آلاف من السنين فقط، كفيلة بتحويل منطقةٍ معتدلةٍ تجوبها الغزلان والأسود إلى أرضٍ مغطاةٍ بطبقةٍ من الجليد يزيد سمكها على ألف ياردة، كانت كافية لأن تُخفض مستوى البحار عشرات الأقدام نتيجة لتحول كمياتٍ هائلةٍ من المياه إلى جليدٍ متجمد في عملياتٍ جليديةٍ واسعة النطاق.

وعلى العكس من ذلك، فإن ارتفاع حرارة سطح الكوكب يؤدي إلى ذوبان هذه الكتل الجليدية الضخمة، مما يتسبب في ارتفاع المستوى الأساسي للمحيطات. وهكذا، فإن رؤوس الزنوج وتلك الحوافّ المتدلية ما هي إلا شواهد جيولوجية على تلك الدورات المتعاقبة من التجمد والذوبان التي أصابت خطوط العرض العليا من الأرض خلال العصور الرباعية، أي خلال المليون سنة الأخيرة تقريبًا.

لقد كانت مجموعة العينات التي جمعناها من الكائنات البانية للشعاب المرجانية مثيرةً للإعجاب بالفعل، غير أن علماء الأحياء بيننا شعروا بأنها لم تكتمل بعد. وكنا نشاركهم بحماسةٍ في هذه «المطاردة العلمية»، لا بدافع الصداقة فقط، بل أيضًا لأنها كانت تمنحنا فرصةً أخرى للغوص في أعماق البحر، حيث لا يمكن للمرء أن يملَّ من مشاهدة أرفف المرجان المفعمة بالحياة.

فعلى تلك الرفوف المرجانية بالتحديد، تجد الشعاب المرجانية، ومعها الأعشاب الكلسية التي تعيش إلى جوارها وتساعدها في بناء الحواجز، أنسب الظروف للنمو والازدهار. وهذه الكتلة الحية الكلسية هي المسؤولة كذلك عن كثافة الأسماك في المنطقة — وخصوصًا الأسماك التي تتغذى على المرجان نفسه.

توجد بعض الأنواع التي تمتلك أفواهًا ذات شفاهٍ صلبةٍ كالدروع، تشبه المنقار، تمكّنها من العضّ في الصخور المرجانية الصلبة لتقتات بها. وفي أحد الأيام صادفنا عددًا من هذه الأسماك التي أطلقنا عليها اسم الأسماك الحدب (Hump-fish). كنا نغوص في هدوء بين الكنوز متعددة الألوان على عمق خمسة عشر إلى عشرين ياردة في الجهة المواجهة للريح من الحيد المرجاني، حين واجهتنا مجموعةٌ من تلك الأسماك الرمادية الضخمة، لكلٍّ منها نتوءٌ بارز فوق الرأس.

كانت مصطفّةً جنبًا إلى جنب في حركةٍ ساكنةٍ كأنها معلّقة في الماء، على بُعد قدمٍ واحدة من الجدار المرجاني. وبين حينٍ وآخر كانت إحداها تندفع فجأة بضربةٍ قوية من زعانفها، لتغرس منقارها في الجدار وتقتطع منه قضمةً صلبة، ثم تعود إلى مكانها لتلوك بهدوءٍ ما اقتطعته من «صخرها الغذائي».

كان المشهد أشبه بقطيعٍ أسطوريٍّ من الماشية يرعى تحت البحر — رؤوسها المائلة، وملامحها العنيدة تحت الحدبة التي تعلوها، وهي تتناوب الانقضاض على الصخور ثم التراجع في تأملٍ بطيء، كأنها تمارس طقوس حياةٍ بحريةٍ غامضة عمرها ملايين السنين.
كانت تلك الأسماك العجيبة تمضغ بهدوءٍ عميقٍ أشبه بالتأمل، وتُخرج بين حينٍ وآخر من فتحة الشرج سحابةً صغيرةً بيضاءَ اللون. اقتربتُ منها دون أن تُبدي أدنى اهتمام بوجودي، وجمعتُ شيئًا من تلك السحابة بيدي، فإذا به مسحوق المرجان الممضوغ. لم يتبقَّ منه سوى الجزء الحجري الصلب. إن فم السمكة يبتلع في آنٍ واحد الجزء الحيّ من المرجان — أي المادة الهلامية (البروتوبلازم) — والهيكل

الجيري الذي يتكوّن فوقه ذلك الجزء الحيّ. تقوم المخلوقات بمضغ كل ذلك معًا، تحتفظ بالبروتين المغذّي، وتطرح الكالسيوم أو الجير على هيئة رمال دقيقة.

لقد راقبنا هذه الكائنات الغريبة في مناسباتٍ عدة، وحاولنا تقدير كمية الصخور المرجانية التي تحوّلها يوميًّا إلى رمل، فتوصلنا إلى نتائج مذهلة. فإذا افترضنا أن كل سمكة تلتهم في كل قضمة سنتيمترًا مكعبًا من المرجان (وهو تقدير أقل من الواقع)، وتتناول خمسين قضمة في الساعة، وتعمل ثماني ساعات في اليوم، وأن عدد الأسماك الحدبة في الشعاب المحيطة بالجزيرة يبلغ نحو ألف سمكة، فإن مجموع ما تنتجه في عامٍ واحد يتراوح بين مئةٍ ومئتي مترٍ مكعبٍ من الرمل — أي ما يعادل ثلاثين ألف طن خلال قرنٍ واحد.

وفي ظل هذه الأرقام، لا عجب أن تكون الرمال المرجانية وفيرةً في جميع المنخفضات التي لا تصلها الأمواج أو التيارات، وأن يكون قاع البحيرات الداخلية في الجزر المرجانية (الأتولات) مكوّنًا من طينٍ كلسيٍّ دقيق، جزءٌ كبيرٌ منه ناتجٌ عن هذا «المعمل السمكيّ للطحن».

غير أن الأتولات الحقيقية نادرةٌ في البحر الأحمر؛ ولا يوجد منها سوى عددٍ قليلٍ على الساحل السوداني مثل سنجانب والريف الأخضر قرب سواكن. أما الشعاب الدائرية فهي كثيرة داخل البحيرات الساحلية، وغالبًا ما تتوسطها جزيرةٌ صغيرة من الرمل تُعرف باسم كَي (Caye). وأكاد أجزم بأن الرمال التي تتراكم في هذه الجزر الصغيرة مصدرها الأساسي هو تلك الأسماك التي تتغذى على المرجان.

ففي المناطق الأخرى من العالم، تعمل الأمواج على تآكل الصخور الساحلية — حتى الصخور الصلبة مثل الغرانيت — فتحولها إلى حصى ثم إلى رمال. لكن في هذه البحار الدافئة يختلف الأمر، لأن الصخور هنا من المرجان الكلسي القابل للذوبان. لذلك فإن فعل الأمواج ليس تآكليًا بالمعنى الميكانيكي، بل هو فعل كيميائي «تآكُدي». فماء البحر لا يُفتّت الصخور المرجانية كما يفعل بالصخور الصلبة، بل يذيبها تدريجيًا، حتى ليكاد لا يتكوّن حول الشعاب المرجانية أي أثر من الرمال لولا هذا الطحن المستمر الذي تقوم به الأسماك المرجانية ذات المناقير الصلبة.
إن الدلائل على أن مياه البحر تمتص الصخور كثيرة ومتنوعة: تلك الحواف المتدلية، والتجاويف والأخاديد التي تمتد أفقياً على طول الجرف حول جزيرة الليث — وبعضها بعمق عدة أمتار — والمثقوبة بتجاويف صغيرة تشبه الأكواب، لا شك في أنها ناتجة عن عملية الذوبان التدريجي. أما «رؤوس الزنوج» من المرجان الميت، فتُظهر جميع سمات الحجر الجيري الذي نحتته المياه ببطء.
وبما أن أمواج البحر الأحمر لا تنتج الحصى ولا الصخور الصغيرة، فكيف يمكنها إذن أن تُنتج الرمل؟ بدا لنا ونحن نتأمل عمل تلك الأسماك أن معظم الرمال مصدرها فعلها الدائب في طحن المرجان.

كانت أيامنا الأخيرة في جزيرة الليث مكرسة لجمع "التذكارات": فكلٌّ منا انطلق في جولة بحثًا عن المرجانات الرشيقة من نوع أكروبورا (Acropora) ذات الفروع البنفسجية أو البيضاء كالثلج، وعن كتل بوريتس (Porites) الضخمة التي تأتي أحيانًا شبه كروية، وقبل كل شيء عن المرجان الأنبوبي الفاخر توبيبورا (Tubipora) بلونه القرمزي البديع. وقد عثرنا أيضًا على بعض الأصداف الجميلة

التي أغنت مجموعاتنا، مثل أصداف بارتر والمحار المروحي (scallop)، والمحار المخروطي تروكا (Troca) الذي تُصنع منه أزرار اللؤلؤ، وتلك الصدفيات الضخمة الرائعة من نوع تريداكنا (Tridacna) التي ترقد في ممراتٍ صخرية ملتوية، وتفتح فكيها قليلاً لتُظهر في غلافها الأبيض أنصع من الزنبق، المحارة الزرقاء الصافية الكامنة داخلها، كأنها جوهرة في علبة من الصدف.

أما شيربونييه (Cherbonnier)، فكان قد أجرى من دون أن يخبرنا تجربةً سرية على عددٍ من المحار، فعثر بين عشرات الأصداف على لؤلؤتين أو ثلاث، لم تكن مستديرة تمامًا ولا فائقة اللمعان، لكنها مع ذلك كانت تحمل قيمةً عاطفيةً خاصة، إذ إنها اكتُشفت بجهده هو وحده.

كنت أنتظر بلهفة أن ترفع السفينة كاليبسو مرساها. لقد كان علم الجيولوجيا الأقل حظًا في هذه الرحلة. فالجزيرة التي اخترناها للدراسة لم تكن بركانية، كما أن مغامرتنا في الأرض العربية انتهت من غير أن نحصل على أدنى فكرة عن طبيعة الصخور أو اتجاه طيات الجبال التي لم نعرف منها، للأسف، سوى خطوطها الزرقاء البعيدة في الأفق، مهيبة وغامضة.

وكان أملنا الأخير في أن نحصل على ملاحظاتٍ جيولوجيةٍ ذات قيمة من هذه الرحلة، هو أن نقوم بسلسلةٍ من القياسات الصوتية في أعماق البحر الأحمر — وهو اقتراح قدّمته إلى القائد كوستو (Cousteau). واليوم يمكن إجراء مثل هذه المسوح الباثيمترية بسهولةٍ وبصورةٍ متواصلة بفضل جهاز الإيكوصوندر (Echo-sounder)، أي مقياس الأعماق بالصدى. أما قبل اختراعه، فكانت عملية قياس الأعماق عملًا شاقًا ومملًا؛ إذ كان لا بد من إنزال الثقل (القدّ) إلى قاع البحر ثم رفعه يدويًا في عملية طويلة تستغرق وقتًا كبيرًا، وحتى عندئذٍ كانت النتائج غير دقيقة تمامًا.
كانت نتائج القياسات القديمة محدودة الفائدة، لأنها كانت متباعدة جدًا ومتفرقة، فلا تقدم سوى فكرة عامة عن أعماق البحر دون دقة تُذكر.

لقد افتتح القياس بالموجات فوق الصوتية (Ultrasonic Sounding) عصرًا جديدًا في علم المحيطات. فالسفينة المجهزة بجهازٍ يرسل على نحوٍ مستمر موجاتٍ صوتيةً عالية التردد نحو قاع البحر، ويسجّل أصداءها دون انقطاع، تستطيع — وهي تسير بسرعةٍ عادية — أن ترسم خريطة دقيقة للغاية لأعماق المنطقة التي تمر فوقها. ومع ازدياد عدد هذه الخطوط المرسومة على الخرائط، تتكوّن لدينا صورة أكثر تفصيلاً ودقة عن تضاريس قاع البحر. ومن خلالها اتضح أن أرضية المحيط أكثر تنوعًا وتعقيدًا مما كان يُظنّ، وأنها تخفي وراءها أسرارًا جديدة في انتظار أن يفكّ الإنسان رموزها — مثل أصل الأودية البحرية العميقة (Submarine Canyons) والجبال المخروطية الغاطسة المعروفة باسم الغيُوَتس (Guyots). كيف نشأت هذه الأودية المغمورة؟ ومن أين جاءت تلك الجبال التي تنهض في الأعماق؟ يبدو أن الجواب يكمن في التغيّرات العظيمة التي طرأت على المستوى العام لمياه البحار عبر العصور الجيولوجية.

أيمكن أن تكون هناك عصور — ليست بعيدة جدًا من منظور الزمن الجيولوجي — كانت فيها باريس مثل بوردو تقع على ارتفاع ألفي إلى ثلاثة آلاف ياردة فوق مستوى شاطئ البحر في ذلك الحين؟ هل يمكن حقًا أن يكون ذلك ممكنًا؟

هناك شِعر رتيب وساحر في حراسة البحر المفتوح أثناء الإبحار. فالإنسان، وهو متكئ على السور، يجد نفسه وحيدًا في مواجهة ذاته. تمر الساعات تلو الساعات، ولا عمل له سوى تأمل النجوم وهي تتأرجح جميعها في اتجاهٍ واحد ثم في الاتجاه الآخر مع تأرجح السفينة. يسمع دقات المحركات المنتظمة، وصفير الماء المتشقق خلف مؤخرة القارب، وأنين الريح الخافت في الحبال والمراسي، ومن حينٍ إلى آخر، في غرفة القيادة القريبة، ذلك الطَقطَقة الخفيفة المنبعثة من الطيار الآلي الجيروسكوبي (Gyropilot): اهتزازات مفاجئة تفصل بينها لحظات صمت قصيرة لا يُسمع خلالها سوى النداء الحاد الرقيق لجهاز قياس الأعماق بالصدى (Echo-sounder).

إنه صوت رنان صافٍ كالبلّور، "طَنِين" يشير إلى انطلاق الموجة في الماء، يتبعه ردٌّ لطيف من الصدى العائد من القاع. يخال لك أنك على اليابسة في ليلةٍ من ليالي يونيو الدافئة، تستمع إلى جوقةٍ من نقيق الضفادع في بركةٍ نائية. والزمن ينساب ببطء؛ والسفينة تميد بي في إيقاعٍ مطمئن. أضع يدي على الخشب الأملس لسور السفينة، وأتساءل:
هل هو ضوء النجوم حقًا الذي يبيّض ظهور الأمواج الراكضة نحونا؟

(انظر الملحق للحصول على تفاصيل إضافية حول القياس بالموجات فوق الصوتية، والأودية البحرية، والجبال الغاطسة "الغيُوَتس").
إن مجرد أسماء تلك النجوم يعيدنا إلى ذكريات الطفولة — "أنتارِس" (Antares)، "ألتَير" (Altair)، "بيتَليجوز" (Betelgeuse)، "سيريوس" (Sirius)... أو لعلها أضواءُ موقعنا نحن — الحمراء في المنفذ الأيسر (Port)، والخضراء في الميمنة (Starboard)، والبيضاء على الصاري. أضواءٌ متواضعة لا تلقي إلا ظلالاً باهتة على مقدمة السفينة.

في البحر الأحمر لا تكاد ترى سفينة أخرى، إلا إذا كنت في الممر البحري الرئيسي — الخط المباشر بين السويس وعدن. هناك تتوالى قوافل السفن البريدية وسفن الشحن، وقبل كل شيء ناقلات النفط العملاقة.

وقد صادف أن التقينا بإحداها تلك الليلة بالذات، حين قطعنا هذا الطريق الرئيسي بشكلٍ مائل. وفجأة ارتفعت أمامنا، على يسارنا، ناقلةٌ هائلة الحجم. ووفقًا لقوانين البحر، كان عليهم أن يُفسِحوا لنا الطريق. لذلك، وبروحٍ من اللامبالاة الرفيعة، كنا أنا و"ساؤوت" (Saout) نقف على الجسر نتأمل أضواء السفينة الأخرى ونوافذها بإعجابٍ حالِم، كما لو كنّا طفلين انقطعا شهرين كاملين عن رؤية أي شيءٍ سوى الشعاب المرجانية وصيادي العرب.

لكنّ تلك الناقلة لم تُبدِ أدنى إشارة للتباطؤ أو لتغيير مسارها. كانت تشقّ طريقها بثباتٍ مهيب، وكأننا غير موجودين أصلاً.
قال ساؤوت، بنصف ابتسامة:

> "أُراهن أنهم جميعًا نائمون هناك."

وفجأة انتفض واقفًا صارخًا:

> "يا إلهي! سيصطدمون بنا!"

اندفع من الجسر نحو الدفّة، أمسك بالعجلة بكل قوته، بينما سارعتُ أنا بفصل الطيّار الآلي، ثم أدار العجلة إلى اليسار بكل ما أوتي من عزم. مررنا بجانب تلك الناقلة الجبّارة على بعد أقدامٍ قليلة فقط، فتابعت طريقها شمالًا دون أن تُبدي أي إشارةٍ بأنها رأتنا، فيما كنا نحن نتراقص فوق الأمواج المتلاطمة في أثرها مثل فلّينةٍ خفيفة تطفو على الماء.

قال ساؤوت وهو يزفر:

> "حسنًا... مرّت على خير!"

ثم عدنا إلى مسارنا الأصلي، وأُعيد تشغيل الطيّار الجيروسكوبي (Gyropilot).

إن هذا "الچايرو" حقًا أداةٌ مذهلة؛ فما ينزعه من شِعرية الإبحار ـــ إذ لم يعد على الدفّة بحّارٌ عريض الصدر يشدّ المقود بقبضته ـــ يعوّضه بدقةٍ وسهولةٍ لا تُقدَّر بثمن. فبمجرّد أن تبتعد السفينة عن الميناء والمياه الضحلة وعن الأخطار الأخرى، وتستقيم على مسارٍ محدد لعدة ساعات، يمكن وصل الطيار الآلي بالجهاز الجيروسكوبي المثبّت في عنبر السفينة. ومن تلك اللحظة، يواصل العمل بإيقاعٍ رتيب من "نقراتٍ مزدوجة" ـــ أشبه بأصوات كرات تنس الطاولة ـــ ليحافظ على الاتجاه ويُصحّح كلّ ميلانٍ أو انحرافٍ في حركة السفينة.
واثقين بهذا الجهاز الثمين الذي أوكلنا إليه مهمة الإبقاء على مسارنا آمنًا بينما نشقّ طريقنا في البحر الأحمر عبر خطٍ خالٍ تمامًا من السفن الأخرى، وجهنا كامل اهتمامنا إلى ما سيبوح به جهاز قياس الأعماق الصوتي (Echo-Sounder) عن أسرار قاع البحر. كنتُ، على وجه الخصوص، مفعمًا بشغفٍ علمي لمعرفة ما سيكشفه هذا الجهاز عن التضاريس المدفونة تحت الحاجز الكثيف للمياه.

فما إن غادرنا جزيرة الليث حتى عبرنا فوق جرفٍ بحريٍّ رهيب غيّر فجأة مستوى العمق من خمسين أو ستين ياردة إلى أكثر من سبعمئة، من دون أي تمهيد. لم يكن من الضروري حتى النظر إلى شاشة الجهاز، إذ إن الفاصل الزمني الطويل بين صوت الإرسال وارتداد الصدى كان كافيًا ليدلّ على هذا الانحدار المفاجئ. بعد ذلك أخذ القاع يرتفع تدريجيًا إلى نحو أربعمئة ياردة، وعلى امتداد عشرات

الأميال كان الرنين اللطيف يتكرّر على فواصل زمنية منتظمة كل ثانيتين، دالًّا على أننا نعبر هضبة بحرية شاسعة ومستوية.

كان البحر هادئًا نسبيًا، وكانت كاليبسو تمخر عباب الماء بسرعةٍ ثابتة تبلغ أحد عشر عقدة. وكان انتظام السرعة شرطًا أساسيًا لنجاح عملنا في هذه المياه المنعزلة، فهو وحده ما يجعل من الممكن تحديد أيّ ظاهرةٍ غير مألوفة تحت سطح البحر وتثبيتها بدقة على الخريطة استنادًا إلى الرسم البياني الصادر عن جهاز الأعماق.

وما إن بلغنا المياه العميقة حتى نبّهنا الرسم البياني إلى أننا نعبر فوق ما يُعرف بـ الطبقة المبعثرة العميقة (Deep Scattering Layer)، تلك الظاهرة الغامضة التي تظهر عادة عند الإبحار فوق أعماقٍ تمتدّ إلى مئات الفاثومات. تبدو هذه الطبقة على الخريطة كأنها صدى ثانٍ يقع بين السطح وقاع البحر، كما لو كان ثمة مستوى وسيط يطفو في منتصف الطريق. وأحيانًا تظهر طبقتان أو ثلاث أو حتى أربع من هذه الطبقات بعضها فوق بعض على أعماقٍ مختلفة.

لكن ما تفسير هذه الانعكاسات الصوتية الغريبة؟
حتى الآن لا نملك جوابًا حاسمًا، وإن كانت النظريات تتوالى بلا توقف. فهل تتكوّن هذه الطبقات من أسراب الأسماك أو قناديل البحر أو الجمبري أو الحبار، أم من عوالق مجهرية (Plankton) تعكس الموجات الصوتية؟
أم أنها نتيجة اختلافٍ فيزيائي في الماء — كاختلافٍ حاد في درجة الحرارة أو الملوحة؟

لكن مثل هذه الفوارق الفيزيائية لا يمكن أن تتحرك صعودًا وهبوطًا بانتظامٍ تبعًا لوقت اليوم.
ومع ذلك، فإن هذا بالضبط ما تفعله تلك الطبقات المبعثرة في الأعماق:
فما إن تغيب الشمس حتى تبدأ بالصعود نحو السطح بسرعةٍ تقارب خمسة عشر قدمًا في الدقيقة، وتبقى هناك طوال الليل، ثم تهبط مجددًا بسرعةٍ عند طلوع الفجر.

من الصعب أن نتصوّر أن مجرد طبقة مائية يمكنها أن تتصرّف بهذا الشكل المنظّم والعجيب...
من غير المعقول أن تكون طبقة من الماء — أكثر ملوحة أو أكثر دفئًا قليلًا من الماء المحيط بها — قادرة على إحداث مثل هذه التغيرات المنتظمة في المستوى.

غير أن هذا السلوك يوحي في المقابل بوجود دفءٍ داخلي يجذب الكائنات الحية نحو تلك الطبقات الغامضة. وبفضل أجهزة قياس الأعماق بالصوت (Echo-sounders)، يبدو أن علم المحيطات الحديث يقف مجددًا على عتبة قلب أرسخ النظريات العلمية. فبعد أن قدّمت هذه العلوم فرضية الجفاف الهائل لتفسير نشأة الوديان والأخاديد البحرية (Canyons) والجبال الغاطسة (Guyots)، ها هي تجعلنا نقبل فكرة مغايرة تمامًا:
أن أعماق المحيطات ليست، كما كان يُعتقد طويلًا، "صحارى بيولوجية" خالية من الحياة، بل على العكس، إن كثافة الكائنات الحية في الأعماق تفوق أحيانًا ما يوجد على السطح.

فالسطح ـــ خصوصًا في وضح النهار ـــ غالبًا ما يخيب الظن بندرته من أشكال الحياة حالما نبتعد قليلًا عن السواحل، وخاصة عن الشعاب المرجانية.
وقد لمسنا ذلك بأنفسنا على متن كاليبسو؛ إذ كم من الوقت أمضيناه مستلقين عند مقدمة السفينة نراقب ذلك الفراغ الأزرق البديع ـــ ذلك شبه الصحراء البحرية المفتوحة التي لا يعكر صفاءها سوى قناديل بحر شفافة قليلة تنساب ببطء في الماء؟

وفي الليل، لا شك أننا كنّا سنتمكن من رصد الجزء العلوي من تلك الطبقات الغامضة وهي ترتفع نحونا. لكن ضآلة مواردنا المالية ـــ وهي سمةٌ مشتركة بين البعثات العلمية التي لا تسعى وراء مكاسب اقتصادية مباشرة ـــ حالت دون تزويدنا بمصابيح كاشفة قوية تمكننا من الرصد والتصوير الليلي لتلك المنطقة القريبة من سطح البحر.

لقد كان الاعتقاد السائد منذ زمنٍ طويل أن الحياة لا يمكن أن تزدهر في أعماق تتجاوز مئة فاثوم، أو مئتين على أبعد تقدير ـــ أي في منطقة ليلٍ أبديّ لا تصل إليها أشعة الشمس.
صحيح أنه تم اصطياد بعض الأسماك الغريبة من تلك الأعماق، لكنها كانت تُعد نادرة للغاية، وكان يُظن أنها تقتات بشظايا بقايا الكائنات التي تموت في المستويات العليا وتهبط ببطء نحو القاع.

كما أُحضرت من الأعماق عينات من الطمي تحتوي على أنواعٍ متعددة من الديدان البحرية. غير أن هذه الديدان كانت بدورها تُفترض بأنها تتغذى على الجزيئات العضوية الميتة التي تهبط تدريجيًا إلى تلك الأعماق. وكان الاعتقاد السائد أن تلك الكائنات القاعية قد طُردت من الطبقات الغنية العليا بفعل الأنواع الأقوى، فاضطرّت للبقاء في الظروف القاسية المعدمة للحياة تحت الحدّ الذي يصل إليه الضوء.

لكن المفارقة المذهلة التي كشفتها أجهزة قياس الأعماق الحديثة هي أنها أظهرت وجود طبقات مأهولة بكثافة بالحياة في تلك الظلمات الرهيبة التي ظنها البشر طويلًا خالية تمامًا من الكائنات...
إن وجود هذه الطبقات المأهولة بالكائنات الحية في أعماق البحار ليس سوى انعكاسٍ لجهلنا الطويل بطبيعة هذا العالم الخفيّ.
لقد بدأنا الآن فقط نكتشف أن الحقيقة بعيدةٌ كل البعد عن تصوراتنا القديمة.

فالمستكشف تور هايردال (Thor Heyerdahl)، أثناء عبوره المذهل لمحيط الهادئ على طوفه الشهير "كون-تيكي (Kon-Tiki)"، لاحظ ليلًا بعد ليلٍ أن عددًا من الأخطبوطات كانت تسقط على سطح الطوف بعد أن قذفت نفسها في الهواء بواسطة دفع الماء بقوة من جوفها ـــ أي وفق مبدأ عمل المحرك النفاث.
أما في النهار، فلم يكن هو ورفاقه يرون أثرًا لتلك المخلوقات.

كما لاحظ هايردال أن صيد العوالق (Plankton) كان أوفر بكثير أثناء الليل، إذ إن جزءًا كبيرًا منها يهبط إلى الأعماق خلال ساعات النهار حين تكون الشمس في كبد السماء.

ومن خلال تلك الرحلة البحرية العظيمة، أدرك هايردال الإمكانات الغذائية الهائلة للعوالق، وما يمكن أن تقدمه للناجين في البحر من مصدرٍ للحياة، باستخدام شبكة بسيطة فقط.
وقد تبنّى الفكرة فيما بعد الرحالة ألان بومبار (Alain Bombard)، وطبّقها خلال ملحمته البحرية العجيبة التي أثبت فيها — بثمنٍ من الجهد والمعاناة يفوق الوصف — أن الإنسان الملقى في عرض المحيطات الواسعة يمكنه، ما دام متمسكًا بالأمل، أن يبقى حيًا لأشهر طويلة بفضل العوالق البحرية وما تجتذبه من الأسماك الصغيرة التي تتغذى عليها.

أما نحن، فكنا نشهد ليالي البحر الأحمر وقد توهجت مياهه بفعل الفوسفور الحيوي، ذلك الضوء المعجز الذي يشعّ من ملايين الكائنات الدقيقة المتلألئة التي لا نرى لها أثرًا في وضح النهار.
فمن أين تأتي هذه المخلوقات المضيئة؟
من المؤكد أنه يجب التحقق مما إذا كانت هذه الرخويات والعوالق التي ترتفع في ساعات الليل تشكّل بالفعل إحدى طبقات الانعكاس العميقة التي تسجلها أجهزة قياس الأعماق الصوتية (Echo-sounders).

إن تلك الطبقات الحية لا بد من دراستها وتصويرها في موطنها الطبيعي.
وقد زعم العالم ويليام بيبي (William Beebe) أنه رآها بأم عينه.
ومع أنه لم يكن يتحدث حينها عن الطبقات العميقة المتحركة — إذ لم يكن العلم قد اكتشفها بعد وقت نزوله الشهير في الكرة الغاطسة (Bathysphere) عام 1934 — إلا أنه وصف سحبًا من العوالق تدور حوله في الضوء الخافت لمصابيح الغوص.
غير أن علماء الأحياء لم يأخذوا كلامه على محمل الجد آنذاك.

لكننا اليوم نعلم يقينًا أن تلك الطبقات من العوالق هي نفسها التي تبدأ بالصعود عند الغسق، ثم تهبط مجددًا عند الفجر.
وكما أوضح لي لاحقًا عالم المحيطات البارز أندريه كابار (André Capart)، فإنها لا تصعد لتتأمل النجوم، بل لتقتات على الكائنات المجهرية التي تعيش على السطح، حيث تخلق — عبر عملية التمثيل الضوئي — مادة عضوية انطلاقًا من الضوء وثاني أكسيد الكربون.

أما لماذا لا تصعد هذه الأسراب الهائلة من الجمبري والحبار في وضح النهار؟
فلأنها — من بين أسبابٍ أخرى — تخشى هذه الكائنات العميقة، مثلها مثل الحيوانات العاشبة في الأدغال الإفريقية، لا تغادر مخابئها لتقتات إلا بعد انقضاء ساعات الحرّ. فهي، إذن، تخشى الشمس، وتفضل نشاطها الليلي حين تبرد المياه ويعمّ الظلام.

وهكذا تتضح أمامنا السلسلة الحيوية الكبرى التي تربط بين الضواري البحرية العظمى وبين ملايين الكائنات المجهرية الطافية.

فـهذه الأخيرة ـــ وهي أكثر عددًا مما يتصوره العقل، إذ يبلغ متوسطها عشرة أطنان في الهكتار الواحد ـــ تُعَدّ الغذاء الأساسي للعوالق البحرية (Plankton)،
التي تُغذي بدورها أنواعًا كثيرة من الأسماك والحيتان والرخويات،
وهذه جميعًا تصبح فريسةً للحيوانات البحرية المفترسة التي تقف على قمة الهرم الغذائي في المحيط.
ولم تَعُد هذه الطبقات العميقة من العوالق مجرّد فرضية، بل شُوهِدت بأعين البشر.
فقد جرت نزولات جديدة إلى الأعماق السحيقة باستخدام أجهزة أكثر تطورًا من تلك التي استعملها ويليام بيبي (Beebe).
لقد نزل الباثيسكاف (Bathyscaphe) الذي صمّمه البروفسور أوغست بيكار (Professor Piccard) ـــ بعد تطويره على يد المهندس ويلم (Willm) ـــ إلى ظلمات الهاوية الأبدية،
وهناك وصف جاك إيف كوستو (Jacques-Yves Cousteau) ما رآه من خلال النافذة الزجاجية السميكة المصنوعة من البليكسي، فقال:

> "إن طبقات العوالق العميقة كثيفة إلى حدٍّ يبدو معه وكأننا نسبح وسط هريسٍ حيٍّ من الكائنات الدقيقة."
ولم يقتصر ما شاهده الغواصون على العوالق وحدها، بل رأوا أيضًا أخطبوطاتٍ ضخمة وأسماك قرشٍ بلغت في نزولها حتى ملامسة قاع البحر ـــ على عمق نحو أربعة آلاف قدم.[1]

كلما ظهرت طبقة الانعكاس العميق (D.S.L.) على الرسوم البيانية التي كنا نراقبها، كان كوستو يهرع إلى جهاز قياس الصدى (Echo-sounder)،
واقفًا متباعد الساقين، قابضًا بيديه على مقابض الجهاز، متركّزًا بكل جوارحه.
كانت هذه الظاهرة الغامضة تثير في نفسه أقصى درجات الحماسة العلمية.
فعلى الرغم من اطلاعه على كل ما كُتب حولها، لم يصل إلى قناعة نهائية بشأن تكوينها الحقيقي،
وكان يأمل، خلال رحلتنا هذه لعبور البحر الأحمر وإجراء مسحٍ تكتوني لقاع المحيط، أن يقترب خطوة من فكّ هذا اللغز.

كنا نحن الاثنين نراقب بعناية فائقة المخطط المزدوج الذي كانت الإبرة الكهربائية ترسمه ثانيةً بعد ثانية على الورق الحساس،
وكانت رائحة خفيفة من الاحتراق تعبق في الجو، ناتجة عن الشرارة التي تطلقها الإبرة عند تسجيلها نبضة الإرسال ثم الصدى المزدوج.
صعودًا وهبوطًا، صعودًا وهبوطًا، كانت الإبرة تتحرك بلا توقف،
ترسم أمام أعيننا خريطةً مصغّرة متحركة، تجسّد في خطوطها المتراقصة حركةً أبديةً بين أعماق البحر وسطحه.
> [1] لاحقًا، هبط الباثيسكاف F.N.R.S. III إلى عمق 13,300 قدم،
وكان ويلم (Willm) وهوو (Houot) أول إنسانين يبلغان تلك الأعماق المذهلة،
حيث شاهدا العوالق ممتدة حتى قاع البحر ذاته، بل واقترب قرش ضخم لينظر إليهما من خلال زجاج النافذة.

تتابعت موجات الموجات فوق الصوتية،
مرسومةً على الورق الحساس كسلسلةٍ لا تنتهي،
كأنها خريطةٌ مصغّرة لذلك المشهد البحري العميق الممتدّ تحتنا ونحن نتحرك فوقه ببطء.
حلّ الليل، وبدأت الطبقة المتناثرة (Scattering Layer) بالصعود بسرعةٍ مذهلة،
حتى غدا من الصعب تمييز خطّها على الرسم عن خطّ السطح.
كان كوستو يسجل بدقةٍ علميةٍ كل مرحلة من مراحل هذا الارتفاع،
ثم ترك التعليمات المفصّلة حول ملاحة السفينة والإشراف على جهاز قياس الصدى،
ونزل إلى حجرته ليستريح.
وبقي رجال النوبة الليلية وحدهم على الجسر.
منذ أن عبرنا الجرف الضخم شرق جزيزة الليث وتبيّن لنا أن القاع مستوٍ نسبيًا عند عمق يقارب 250 قامة (fathoms)،
تركت أنا أيضًا الجهاز بعد أن سئمت رتابة حركة الإبرة،
وعُدت إلى مكاني عند السور الجانبي للسفينة،
مستندًا بذراعيّ إليه،
أرقب السماء المرصّعة بالنجوم وأستسلم لنصف حلمٍ يوقظه طنين جهاز الصدى المنتظم.
كنت بين حينٍ وآخر أتوجه إلى غرفة الخرائط لألقيَ نظرةً على الجهاز؛
لكن لا شيء غير عادي كان يحدث.
كنا نسير فوق قاعٍ أفقيٍّ تقريبًا يميل قليلًا نحو الغرب،
في سلسلة من المدرّجات أو الدرجات تتراوح اتساعًا بين ثلاثٍ وستّ أميال،
لكن عمق كلٍّ منها لا يتجاوز بضع قاماتٍ قليلة.
وعند حلول المساء، كنا فوق عمق 350 قامة تقريبًا.
كان هذا الانحدار المنتظم في شكل درجاتٍ متتابعة
يتوافق إلى حدٍّ ما مع تصوري العقلي لما يُعرف بالخسف الأرضي (Graben)،
إلا أن عرض هذه الدرجات كان أكبر مما توقعت.

وحين اطمأننت إلى هذا النظام المنتظم،
عدتُ إلى تأمل النجوم في سكونٍ عميق.
كانت نوبتي على وشك الانتهاء،
وجاء دوپاس (Dupas) ونيفيلو (Nivelleau) لتسلّم المناوبة،
وقد تلقّيا تعليماتهما من ساو (Saout) قبل أن يخلد إلى النوم.

بقيت معهما، مدفوعًا بحماسةٍ علمية لرؤية الكيفية التي سيبدو بها التجويف المركزي للبحر الأحمر على الرسم البياني.
كان كلٌّ من دوپاس ونيفيلو هاويين شغوفين بعلم الفلك؛
فكلما اجتمعنا في الليل، كنا نحاول توسيع معرفتنا بالسماء،
تنتقل أبصارنا من كوكبة أرغو (Argo) إلى النجم آخر النهر (Achernar)،

ومن فيغا (Vega) إلى الدلفين (Delphinus)،
فيما كان طنين جهاز الصدى المنتظم يملأ الجو كأنما هو أنشودة الضفادع في الليل،
يبعد عن أذهاننا التفكير في الأعماق المظلمة تحتنا.

كان الوقت يقارب الواحدة بعد منتصف الليل
حين لاحظت فجأةً أن الإشارة العائدة من جهاز الصدى قد تغيّر طولها،
إذ أصبحت الفواصل بين النبضات أطول من المعتاد.
وفي العادة، لا يحتاج ضابط النوبة إلى القلق
إلا إذا لاحظ تسارعًا مفاجئًا في الإشارات،
لأن ذلك يعني اقتراب القاع من السفينة بشكلٍ خطير...
أما اتساع الفواصل الزمنية بين النبضات،
فقد كان علامة على هبوطٍ حادٍّ في الأعماق.

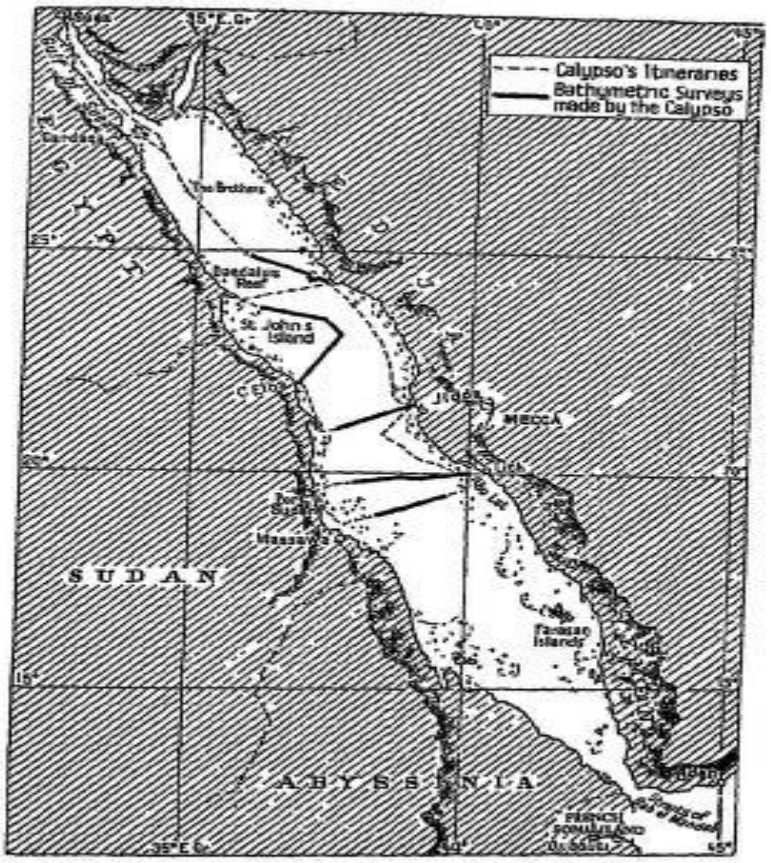

"Calypso" in the Red Sea

كان الضابط المناوب لا يُبدي قلقه عادةً إلا عندما تشير الإبرة إلى ارتفاعٍ مفاجئ في قاع البحر، لأن ذلك يعني خطر الاصطدام بالصخور أو الشعاب.
أما الانخفاض المفاجئ في العمق، فكان يمر غالبًا دون اهتمام كبير،
إذ لم يكن يُعدّ خطرًا على السفينة.

ولذلك احتجت إلى بضع لحظات لأدرك أن شيئًا مهمًا يحدث بالفعل.
أسرعتُ نحو غرفة الخرائط، وهناك اكتشفت أن القاع قد هبط خلال دقائق قليلة إلى نحو ألف قامة (fathoms).
كان المشهد على الورق مدهشًا:
جرفٌ شاهق انقطع فجأة في الأعماق، تظهر على جوانبه درجاتٌ ضيقة حادّة الملامح،

مرسومة بدقةٍ متناهية على الورق الأبيض.
لكننا كنا قد تجاوزناه بالفعل،
وسفينتنا تمخر الآن فوق قاعٍ أفقيٍّ تمامًا، مستوٍ كلوحٍ من الحديد.

غمرني شعور بالبهجة.
إنه لأمر يثير الدهشة أن ترى — بعينيك وعلى الورق في اللحظة نفسها — شيئًا بعيدًا عن متناول الإنسان يُرسَم لك بكل هذا الوضوح،
كأنما البحر نفسه يدوّن أسراره على صفحةٍ من الضوء.
لا بد أن عالم الزلازل (Seismologist) يشعر بالإثارة ذاتها
حين يرى جهازه يرسم أمامه رجفة أرضٍ بعيدة في لحظتها نفسها.
لكن ما هو أعجب من ذلك كله أن ترى تلك الخطوط المطبوعة تتطابق بدقةٍ مدهشة مع النظرية التي وضعتها مسبقًا حول الخنادق الغارقة (sunken trenches).
بقيت هناك ممسكًا بمقابض الجهاز بإحكام،
فالبحر كان يزداد اضطرابًا،
وموجاته تضرب جوانب السفينة بعنفٍ متزايد.
كانت الإبرة الفولاذية الرفيعة تواصل حركتها العمودية بلا كلل،
ترسم خطًا بعد خط،
وتُطلق شرارةً صغيرة في كل نهايةٍ لمسارها —
واحدة عند الإشارة الأولى، تمثل بداية نزول الموجة الصوتية،
والأخرى عند عودتها، تمثل صداها المرتد من القاع.
كانت تلك الشرارة تُبخّر الغشاء الفضي الرقيق الذي يغطي الورق،
فتتصاعد سحابة دقيقة من الدخان،
ويبقى على الورقة خطٌّ أسود غائر يرسم تضاريس البحر في صمتٍ غامض.
وبحسب الخرائط التي بين أيدينا،
كنا نقترب من منتصف البحر الأحمر،
في نقطةٍ تقع تقريبًا بين الساحلين الإرتيري والسوداني،
أي فوق المنخفض المركزي العظيم —
المنطقة التي تمثل قاعدة الخسف الأرضي (graben).
إن شكل هذا الخسف، كما يُظهره الرسم،
يبدو دائمًا كسلسلةٍ سريعة من الدرجات الحادّة المتتابعة،
تفصل القاعدة الأفقية الواسعة عن الهضبة العليا.
وهكذا بقيت أتابع التسجيل منتظرًا اللحظة
التي نعبر فيها هذا المنخفض تمامًا،
أدرس من بعدها شكل الجرف الشرقي المقابل على الورقة.
> مقطع من خرائط قياس الأعماق في البحر الأحمر بين خطي العرض 19 و21
أُجريَت القياسات بجهاز الصدى (Echo-sounder) تحت إشراف القبطان جاك-إيف كوستو.

العمق المسجل: 1200 قامة (fathoms).

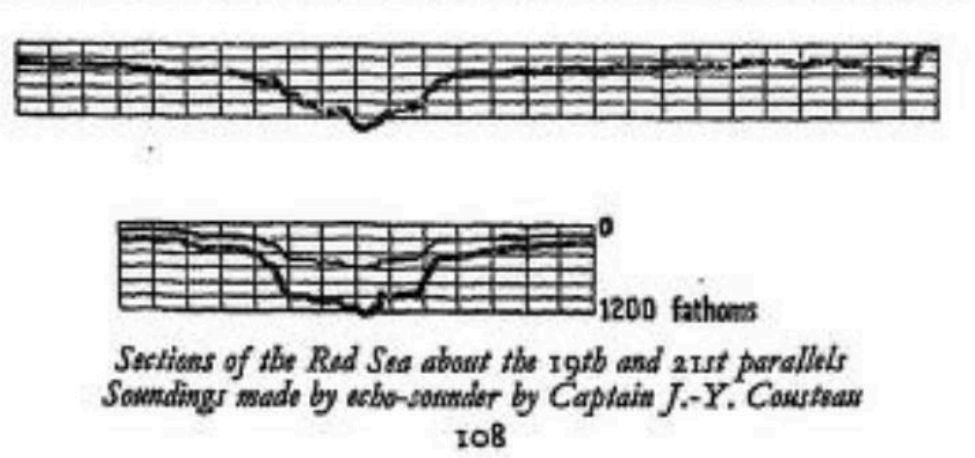

Sections of the Red Sea about the 19th and 21st parallels
Soundings made by echo-sounder by Captain J.-Y. Cousteau
108

كان من المتوقع أن يظهر الجرف الذي يسبق الحافة السودانية المغمورة، غير أنني فوجئت بانخفاض حاد في رسم الأعماق بمقدار خمسين قامة بحرية. فهل لم نصل بعد إلى منتصف البحر؟ بدا أن السهل المركزي سيستمر على امتداد عدة أميال — ربما عشرين — قبل أن ينتهي فجأة عند الجرف المقابل. ولم أكد أفرغ من هذه الفكرة حتى سجل المؤشر، بثباته المعهود، انخفاضًا حادًا جديدًا بمئة قامة خلال ثوانٍ معدودة، أي هبوطًا عموديًا يقارب ستمئة قدم. وكانت هذه مفاجأة مدهشة، لكنها لم تكن النهاية؛ إذ ظهر انخفاض آخر بمئة قامة، ثم بعد امتدادٍ أفقي عريض يبلغ ميلين، هبوط ثالث بخمسين قامة. وهكذا وجدنا أنفسنا فوق عمقٍ يبلغ 1150 قامة بحرية.

على امتداد أربعة أميال تالية ظل القاع أفقيًا، ثم واجهنا سلسلة من الدرجات الصاعدة، متماثلة تمامًا مع تلك التي كنا قد اجتزناها من قبل. وبعد دقائق وصلنا إلى منطقة مستوية يتناقص عرضها الواضح مع ضيق الدرجات السابقة، وكانت تقع على عمق يقارب 850 قامة تحت عارضة السفينة، تمامًا في الخط نفسه مع المنطقة التي «حلّقنا» فوقها قبل ساعتين. ساعتان كاملتان مرّتا من دون أن أشعر، وقد استولى عليّ انفعال شديد وأنا أتابع بأمّ عيني انكشاف صدع حقيقي في قاع البحر: لم يكن سريرًا أفقيًا عريضًا تحدّه درجات من الجانبين، بل أخدودًا ضيقًا للغاية، يشبه الفُرجة العميقة المحصورة بين درجات تتقارب تدريجيًا. لم يسبق لأحد أن لاحظ مثل هذا التكوين من قبل، ولا أحد من الجيولوجيين الذين طالما حاولوا تفسير هذه الحوادث الجسيمة في قشرة الأرض تخيّل هذا الشكل تحديدًا.

وبعد اجتياز المنطقة المستوية (التي يبلغ عرضها نحو تسعة أميال، مثل نظيرتها السابقة) أخذ قاع البحر يرتفع من جديد على شكل درجات متتابعة وواضحة حتى وصلنا إلى الهضبة السودانية. عبرنا هذه المنطقة نحو الثالثة صباحًا. كانت المفاجأة قد انقضت، والإثارة خلفنا، فعاد المخطط يرسم أعماقًا رتيبة متجانسة. وفجأة أدركت أن البحر الهائج قد تحوّل منذ برهة إلى عاصفة حقيقية، وأن سفينة كاليبسو كانت تتمايل بعنف وتغوص في الأمواج اضطرابًا. عندئذٍ شعرت بإرهاق شديد، واستعدت الإحساس القديم بمشقة مهنة علماء المحيطات. وصلنا إلى ميناء سواكن السوداني (بورتسودان) في الصباح، بعد رحلةٍ عصيبة. عبثًا تمنيّنا قليلًا من الهدوء؛ فقد ظلّ البحر مضطربًا حتى النهاية، ولم يكد البحّارة المنهكون يطأون اليابسة حتى بدوا شاحبين يائسين.

تَعَرُّجات في البحر الأحمر

أمضينا يومنا في ميناء بورتسودان نملأ خزانات السفينة بالماء العذب ونستكمل المؤن ونشتري زيت الوقود، وكانت الأسعار هناك أقلَّ على نحوٍ لا يُصدَّق مقارنةً بجدة.

لم تكن بورتسودان مدينة مثيرة للاهتمام؛ فهي مدينة عادية مملة ككل المدن الاستعمارية، وزادها الطابع الإنجليزي افتقارًا إلى الطابع الشرقي الأصيل حتى أصبحت شبه غير محتملة. خرجنا إلى البر، ونحن نجرّ أقدامنا بملٍل في جولةٍ روتينية بين نوافذ المتاجر الأوروبية، نتأمل السلع المعروضة من أطعمةٍ معلبة، وشوكولاتة، وبسكويت، وقمصان أنيقة، وقبعاتٍ استوائية، وروابط عنق، وأجهزة غرامافون وراديو وأسطوانات لبينغ كروسبي، وروايات بأغلفةٍ صاخبة الألوان. بعد المنطقة الأوروبية الصغيرة، يمتد سوق الأهالي الكبير، لكنه مع ذلك لا يملك أي مظهر "تصويري" جذاب؛ إذ يُقام داخل حظائر حديدية ضخمة تشبه ما قد يُرى في ليفربول أكثر مما يُرى في الشرق.

وبدافعٍ من الشعور بالواجب، تابعنا سيرنا حتى أطراف المدينة التي تنتهي فجأة أمام سهلٍ صحراوي مترامي الأطراف، يهتزّ فيه الهواء من شدة الحرّ حتى يصعب النظر فيه. وقفنا نتأمل الأفق البعيد حيث تلوح الجبال الرمادية المائلة إلى الزرقة، ثم عدنا إلى الميناء. وبعد أن استنفدنا كل "مباهج" الإجازة القصيرة في بورتسودان، جلسنا على الشرفة الفخمة لأحد الفنادق المملّة نحتسي كأسًا من الويسكي، ثم تمددنا على مقاعد الحديقة العامة ذات العشب المنسّق بعناية. وأخيرًا، عدنا إلى السفينة.

من بورتسودان، سلكت كاليبسو القناة الواقعة بين الشعاب الساحلية والحاجز المرجاني، متجهةً نحو الجنوب، حتى تجاوزت سواكن ثم انعطفت عند خط العرض التاسع عشر، لتُضبط دفتها مجددًا باتجاه شبه الجزيرة العربية. كان لا بد من تسجيل ممرٍّ جديد موازٍ للأول حتى نتحقق من امتداد الصدع الأرضي ونشرع في إعداد خريطة دقيقة لقاع البحر.

وبسرعةٍ بطيئة، قاد القبطان السفينة خارج القناة الملاحية المرسومة على الخرائط، ثم وجّهها نحو الممرّ العميق الواقع بين الرفوف المرجانية، وكانت الرؤية واضحة لأن الشمس باتت خلفنا، حتى وصلنا نحو الخامسة مساءً إلى ما تُسميه الخرائط «الحيّد الأخضر» (Green Reef)، وهو أحد النوادر من الحلقات المرجانية (الأتولات) في هذه المنطقة من العالم. كان شكله بيضويًّا بطول نحو ثلاثة أميال وعرض ميلين، يتكوّن من دائرة شبه كاملة من الشعاب الغارقة. قاد كوستو السفينة بين فتحتين في الحلقة المرجانية، وتقدّمنا مسافة قصيرة داخل البحيرة الهادئة حتى أسقطنا المرساة لإجراء غطسة استطلاعية سريعة.

لامسنا القاع على عمق سبعين قدمًا، وهو ما أظهرته أجهزة قياس الأعماق من قبل كمتوسط عمق للبحيرة. كان القاع أفقيًا مغطّى بطبقة سميكة من الطين الجيري الأبيض تقريبًا، والذي ما إن حاولنا التقاطه بأيدينا حتى أحاط بنا سحاب كثيف منه، معكّرًا المياه من حولنا. ويُعادل هذا العمق تقريبًا أعماق بحيرات الأتولات في المحيط الهادئ، التي تتراوح عادة بين سبعين ومئةٍ وعشرين ياردة. هذه المشابهة الغريبة بين منطقتين متباعدتين جغرافيًا لم تُفسَّر بعد تفسيرًا مقنعًا.

لم نُطل المكوث، إذ أردنا مغادرة المنطقة قبل حلول الظلام. عند السادسة مساءً، أظهر جهاز الأعماق هبوطًا مفاجئًا من ثلاثين إلى مئتي قامة بحرية (نحو 360 مترًا تقريبًا): لقد تجاوزنا الهضبة القارية التي تنحدر، مثل نظيرتها على الشاطئ المقابل، إلى الأعماق السحيقة ليس عبر ميلٍ تدريجي كما في معظم بحار العالم حيث لا تتجاوز درجة الانحدار خمس درجات، بل عبر جرفٍ حاد يبلغ انحداره تسعين، بل مئة درجة في بعض المواضع.

في المياه العميقة، تقلّ صعوبات الملاحة نسبيًا. ولذلك، وبعد أن أجرى القبطان حساباته وضبط مسار السفينة لرحلة الليل، لحق بالآخرين في الأسفل، إذ لم يكن ثمة ما يُفعل سوى ترك السفينة تمضي في طريقها حتى الصباح. كان الموضع الوحيد المقلق هو المنطقة الوسطى أو ما سمّيناه "الطريق العالي" في قاع البحر. وكعادتي، كنتُ مستندًا إلى الحاجز الحديدي، أُنصت بلامبالاة إلى الرنين البلّوري لجهاز قياس الأعماق وأنا أترقب الخطوة التالية من الصدع البحري.

كنت أشعر بارتياحٍ عجيب: فقد تناولت جرعةً من دواء دوار البحر، وكان البحر ساكنًا كالزيت، والنسيم الليلي بعد قيظ النهار يلامس الوجه بنعومةٍ لذيذة. كانت السفينة تشق طريقها بسرعة فوق بحرٍ أسود كالخشب المصقول، لا يلمع فيه سوى تموّجات الموج الطويلة الزيتية. وفجأة، وبينما كانت الإشارات الصوتية التي يصدرها الجهاز تتباعد سابقًا بمقدار ثانية طويلة بين كل نبضة وأخرى، فجأة تسارعت النبضات الصوتية التي يُصدرها جهاز قياس الأعماق، وتحولت إلى وابل متلاحق من الأصوات الصغيرة، وكأن كل إشارة تحاول أن تلحق بالأخرى. هرعنا إلى غرفة القيادة، وفصلتُ نظام القيادة الآلي (الجايرو بايلوت)، بينما حوّل ساو ذراع السرعة من "تقدمٌ كامل" إلى "توقف". أمسك ساو بعجلة القيادة، وقفزتُ أنا الدرجات الثلاث المؤدية إلى غرفة الخرائط لأرى ما يسجله الجهاز. كان المنظر مذهلًا! لقد ارتفع قاع البحر فجأة إلى عمق ثلاث قامات فقط، في حين كانت السفينة ما تزال تندفع إلى الأمام، وقاعها يمر على بعد أقدام قليلة من الشعاب!

اندفع القائد صاعدًا السلم الضيق أربع درجات في كل قفزة.
– "ما الأمر الآن؟"
– "قامتان فقط!"

دخل كوستو الغرفة، نزل الدرجات الثلاث، وانحنى فوق شاشة الجهاز.
– "لا يُصدق!"

لكن الأمر كان حقيقيًا تمامًا. فعلى الرغم من أن الخرائط الرسمية كانت تشير إلى أننا نسير بين منطقتين من القياسات: الأولى لامست قاعًا طينيًا على عمق 218 و238 قامة، والأخرى لم تبلغ القاع حتى عند 29 و34 قامة، إلا أننا كنا في الواقع نطفو فوق نتوء صخري شاهق يرتفع فجأة من أعماق الهاوية البحرية. لو كان الوقت نهارًا، لأدار كوستو السفينة بمهارته المعتادة، ولما كان ثمة خطر. ولكن الليل كان حالك السواد.
– "خمس قامات!"

لم تكن كاليبسو قد توقفت بعد حين انقطع الجرف فجأة؛ وعلى بُعد عشرة أمتار فقط عاد القاع إلى عمق ثلاثين قامة. كان الموقف حرجًا للغاية. فانتظار الفجر كان ضربًا من المجازفة، إذ كان الموج قادرًا بسهولة على دفع السفينة نحو الشعاب، ولم نكن نعرف إن كان ثمة نتوء آخر قريب يختبئ في الظلام، مستعدًا لتمزيق بدن السفينة في أي لحظة.

أمر كوستو: "تقدّم ببطء!" فتحركنا من جديد، بحذرٍ شديد، وساو عند عجلة القيادة، وكوستو إلى جواره، ورجلان عند جهاز قياس الأعماق، بينما تمركز الباقون عند المقدّمة، ينحنون فوق الدرابزين ويتفحّصون بعيونٍ متوترة سطح الماء المظلم الذي يتماوج حول مقدّمة السفينة.

بدأ العمق يزداد تدريجيًا، وسرعان ما تجاوز المئتي قامة، واستقر القاع من جديد على مستوى أفقي. استمررنا في هذا التقدّم البطيء المرهق نحو عشر دقائق، ثم أمر كوستو: "نصف السرعة إلى الأمام!" وبعد دقائق قليلة استعدنا سرعتنا المعتادة، وكان شعور الارتياح الغامر الذي ساد بيننا دليلاً على مدى التوتر العصبي الذي كنا نرزح تحته. نزل الرجال الواحد تلو الآخر إلى الأسفل، وحتى القائد نفسه انسحب أخيرًا بعد أن اطمأن تمامًا، واستأنفت السفينة كاليبسو مسيرها في الليل على الإيقاع المنتظم لدوران مروحتَيها. لكن سرعان ما ارتفع جرف جديد من الأعماق، وفي ثوانٍ قليلة أخذ جهاز قياس الأعماق يرنّ بجنون: ثلاث أقدام فقط، ثلاثة أقدام من الماء تحت العارضة!

كان ما حدث تكرارًا دقيقًا لما واجهناه سابقًا، لكن هذه المرة هرع جميع الرفاق بسرعة إلى سطح القيادة. كان مشهد المنحنى الذي يرسمه جهاز الأعماق على الورق مرعبًا، إذ يُظهر الشعاب المرجانية وهي تكاد تلامس أسفل السفينة. أيّ شعور كان يمكن أن يعتري الرجال المتجمّعين على الجسر أو في المقدّمة لو أن صدمةً مفاجئة قذفت بهم في هذا الليل الحالك؟ كما في أيام الإبحار الشراعي القديمة، كان أحد البحّارة ينحني من فوق القوس ممسكًا بخط الرصاص لقياس العمق يدويًا، إذ إن الصدى الذي يسمع في منتصف السفينة سيكون متأخرًا جدًا عن التحذير. كنا نتقدّم ببطءٍ شديد، بقدر بوصاتٍ كل مرة، على إيقاع النداءات القادمة من المقدّمة:
– "قامتان! قامتان! قامتان ونصف!... قامتان!"

ثم ارتفع الصوت المنتظر بلهجة الانفراج:
– "أربع قامات! ست قامات! سبع! العمق يزداد!"

وفي غرفة الخرائط، كانت الخطوط المرتسمة على جهاز الأعماق تُظهر أن الشعاب بدأت تهبط بحدّة نحو الأسفل. بعد فترة قصيرة استأنفنا سرعتنا العادية، غير أن القبطان وعددًا من الرجال ظلوا على الجسر يتابعون بانتباه. وكانوا على حق، إذ واجهنا ثلاث مجموعات جديدة من الشعاب المفاجئة، وشعرنا في كل مرة بذلك التوتر المقيت نفسه. كان الأمر أشبه بالعزف على مفاتيح بيانوٍ عملاقٍ من صنع سيكلوب، خمسة مفاتيح سوداء، يبلغ ارتفاع كلٍّ منها أربعمئة ياردة، ترتفع من لوحة مفاتيح مطمورة في أعماق البحر.

ولم يهدأ البحر تلك الليلة المليئة بالأحداث إلا عند منتصفها، حين وصلنا إلى صدعٍ صخريٍّ انحدر بنا فجأة إلى عمق يزيد على ثلاثمئة وعشرين قامة، عندها فقط استعاد كوستو ثقته في الخريطة، ونزل إلى الأسفل لينام.

لكن ظلّ السؤال قائمًا: ما الأصل الحقيقي لهذه الجدران العمودية، لهذه المداخن الجيولوجية العملاقة؟ إن الرفوف المسطحة التي تحدّ البحر الأحمر من الشرق والغرب تزخر جميعها بهذه النتوءات الحادة. فهل يمكننا أن نستنتج أنه، قبل حدوث تلك الانهيارات الأرضية الهائلة التي أدّت، من جملة ما أدّت إليه، إلى تكوّن منخفض البحر الأحمر، كانت شبه الجزيرة العربية وأفريقيا تشكّلان سطحًا واحدًا شبه مستوٍ؟ على هذا السطح كانت تقوم بعض التلال المتفرقة، لا يتجاوز ارتفاعها بضع عشرات أو مئات من الياردات. وعندما اندفعت المياه عبر مضيق باب المندب لتملأ الأخدود الطويل، ربما لم تغمر هذه التلال بالقدر الكافي لطمسها بالكامل، مما أتاح استمرار حياة المرجانيات التي تابعت نموها عند القمم المرتفعة. ومع استمرار عملية الانهيار والانخساف، كانت القاعدة المرجانية تغوص تدريجيًا نحو الأعماق، غير أن المرجانيات (المَدْرَبورات) كانت تُكافح لتبني نحو الأعلى، محافظةً على وجودها في الطبقات العليا من المياه الضرورية لبقائها.

مرّت بقية الرحلة دون حوادث تُذكر، لكن الخط البياني الجديد الذي رسمه جهاز الأعماق أثار في نفسي حماسة شديدة لما يحمله من تشابه مع الرسم الأول. أصبح من الممكن الآن أن نُدرك كيف تصطفّ الجروف المختلفة، التي تمثّل في الحقيقة الفوالق الأصلية، بين الجانبين، وأن نبدأ برسم مخططٍ أوّليٍّ للشكل الحقيقي لـ الغَرْبَان (Graben)، كما يبدو عندما لا تعيقه التحوّلات أو التشوّهات الجيولوجية اللاحقة.

كم كنت أتمنى لو كان بوسع السفينة أن تتابع مسارها نحو الجنوب مسافة خمسٍ وعشرين ميلًا أخرى لإجراء مسحٍ إضافيٍّ في منطقة أبعد جنوبًا، لكن الزمن – ذلك الشيء الذي لا يمكن استعادته – لم يكن في صالحنا، وكوستو لم يكن يملك رفاهية التأخير. كان علينا أن نطوي معسكر جبل الليث ونوجّه مسارنا نحو أوروبا.

وبما أنّ المسح الجنوبي لم يعد ممكنًا، فقد تمنّيت على الأقل تنفيذ تسجيلين أو ثلاثة تسجيلات موازية أثناء رحلة العودة. غير أنّ الوقت لم يعد يسمح بذلك أيضًا، فكان أن اتفقنا في النهاية على العبور عبر

البحر الأحمر بطريقةٍ متعرّجة، على شكل خطٍّ متكسّر (زِجْزاجي)، بحيث نحصل من خلال تلك المسارات المائلة على صورةٍ أكثر اكتمالًا للبنية الطبوغرافية لقاع البحر.

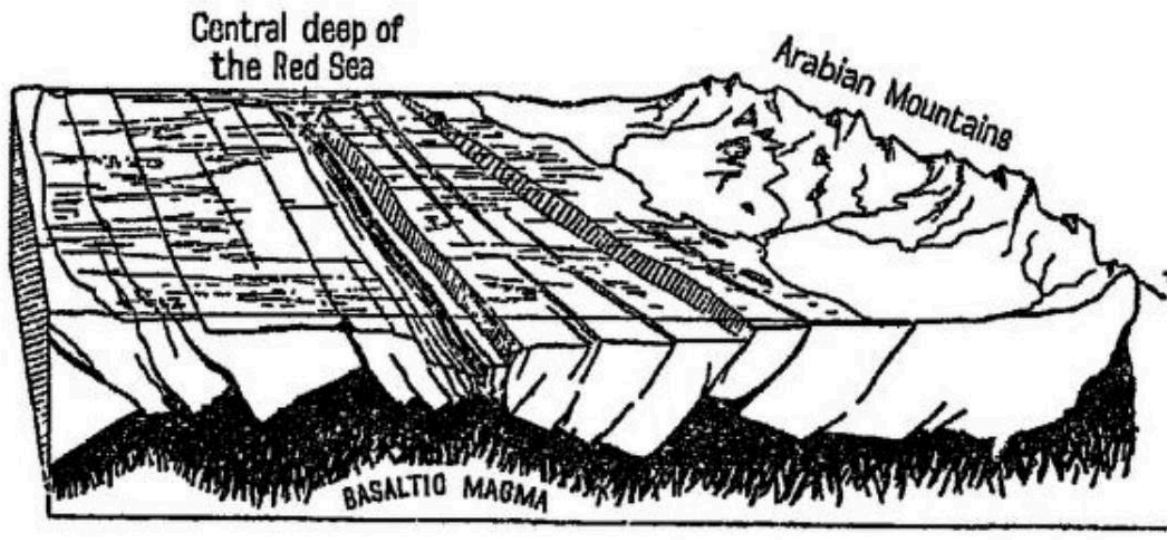

The shape of the Red Sea bed

قررنا أن نعبر البحر الأحمر بطريقةٍ متعرجة لا في خطوطٍ متوازية، حتى نتمكّن من رصد قاع البحر في عرضين أو ثلاثة من مياهه، غير أن هذه التسجيلات كانت مائلة أكثر مما ينبغي، باستثناء التسجيل الأول عند خط العرض الثاني والعشرين، إذ كان ما يزال عموديًا نسبيًا على اتجاه الفوالق الكبرى. ويبدو أيضًا أنه شمال خط العرض 22 كان قاع البحر الأحمر مغطّى إلى حدٍّ ما بطبقاتٍ من الحمم البركانية قبل أن يتكوّن الأخدود المركزي، وهو ما جعل، إلى جانب ميل خطوط تسجيلنا الأخيرة، من الصعب الوصول إلى أي استنتاجٍ علميٍّ قاطع.

خلال عبورنا البحر الأحمر توقّفنا مرتين عند اليابسة: الأولى شمال جدّة، والثانية في جزيرة سانت جون. في الرحلة الأولى داخل الجزيرة العربية، توغّلنا في شرم أو بحر، وهو لسانٌ بحريٌّ يمتد إلى داخل اليابسة مسافة ثلاثة أو أربعة أميال. كنا نأمل أن نجد هناك دليلًا على وجود فالقٍ جيولوجيٍّ تحت الماء، باستخدام جهاز قياس الأعماق. وعلى جانبي الشرم امتدّت صحراء لا نهائية، مستوية تمامًا، وقد سُوِّيت بفعل عوامل التعرية. وإذا كان ثمة كسرٌ في القشرة الأرضية هنا، فربما حافظ هذا الممر البحري على أثره من الطمس الكامل الذي تسببه عمليات التعرية الجوية.

وفعلًا، بعد الإبحار لمسافة بضع مئات من الياردات فوق قاعدة أفقية تمامًا، كشف الجهاز الحساس عن درجة انحدار مفاجئة بارتفاع يقارب قامة رجل (نحو قامة بحرية واحدة)، تلتها مساحة أفقية جديدة. غصتُ مع نيستروف لمعاينة الموقع بأجهزتنا، لكن في تلك القيعان الطينية كان الماء بعيدًا كل البعد عن

صفاء الشُّعَب المرجانية التي اعتدناها؛ فعلى عمق ستين قدمًا، كان من النادر أن نرى لمسافة تزيد على مترين أمامنا، أو نميّز تغيرًا في الميل وسط ذلك الطين الأبيض الذي غلّف كل شيء.

ومع ذلك، كان المكان ممتعًا من الناحية العلمية؛ إذ أدركنا كيف يمكن للمياه الراكدة أن تحمي حتى أصغر التكوينات الصخرية من التآكل الجوي، كما لاحظنا أن في تكوين الغَرْبَان (الأخاديد القارية)، إلى جانب الانحدارات العمودية الكبرى التي تمثل الفوالق الرئيسية، توجد أيضًا انكساراتٌ ثانويةٌ عديدة تقطع انتظام السطوح الأفقية.

وعندما عدنا إلى سطح السفينة، وجدنا على متنها بدويين اثنين: أحدهما خجول ومنكمش، والآخر فضوليّ، ماكر، ذو طابعٍ فكاهيٍّ واضح. ويبدو أن الثاني قد صعد إلى السفينة دون تردّد، مدفوعًا بشغف الاكتشاف والمغامرة.
لم تكد تنتهي المجاملات المعتادة حتى بدأ أحد البدويَّين يسألنا إن كان لدينا أسلحة للبيع.
كان ديباس قد اكتشف أثناء وجودنا في الليث أن العرب هناك يهتمون بشيئين قبل كل شيء: السلاح والمقويات الجنسية. وكانت الثانية ذات أهمية خاصة لأولئك الذين تسمح لهم ثروتهم بتعدّد الزوجات.

فـ ملذّات الحبّ تُقدَّر عند البدو تقديرًا عظيمًا، وهم محرَّمون من الخمر وحتى من التدخين بنصّ القرآن. غير أن الأحاديث الكثيرة التي أجراها ديباس معهم دلّت على أنهم يعيشون قلقًا مستمرًّا بشأن قدرتهم على أداء واجباتهم الزوجية. ومع ذلك فهم شديدو الغيرة، وخلال المدة التي قضيناها بينهم لم نرَ امرأة واحدة من نسائهم الجميلات اللاتي لمحنا بعضهنّ عابرًا في الصحراء خلال إحدى جولاتنا بسيارة لوساك.

مرّةً واحدة فقط، في الليث، لمحنا امرأتين بدويتين نحيلتين، شامختين، متحجّبتين. وما إن أدركتا أنهما تحت الأنظار حتى استدارتا سريعًا ودخلتا المبنى المتهالك الذي خرجتا منه ـــ وكنا لا نزال على بُعد نحو خمسين ياردة.

على ظهر "كاليبسّو"، بدأ حوار المساومة بين العربي الملتحي الذي بدا كقاطع طريق وبين دوما، وهو الوحيد بيننا الذي كان يملك سلاحًا. ولا أدري ـــ يقول تازييف ـــ من الأكثر ولعًا بالبنادق والخناجر: البدوي أم دوما؟
لكنّ دوما كان يتميّز بأنه يستطيع أن يُجدِّد مخزونه متى شاء، ولهذا لم يتردّد في بيع الرجل بندقيةً كان يحتفظ بها في مقصورته، مصونةً ومزيّتةً بعناية.

وبعد أن تولّى جاك ديباس الترجمة والمفاوضة الطويلة التي لا بدّ منها في مثل هذه المعاملات في تلك البلاد، تمّت الصفقة.
وعلّق ديدي بأسفٍ وهو ينظر إلى الأفق بعد إبحارنا قائلًا:

> "لو كنت أعلم، لجئت بحمولةٍ كاملة من هذه الأشياء!"

والواقع أنه من المؤكد أن أيّ شخصٍ يأتي إلى الجزيرة العربية محمّلًا بالأسلحة سيجد من يشتريها بأسعارٍ خيالية.

في اليوم التالي، ألقت كاليبسّو مرساها على الحافة المرجانية لجزيرة سانت جون — وهي التي كان اليونان القدماء يسمّونها "توبازوس".
وقد استُخرجت منها الأحجار الكريمة على مدى آلاف السنين، وعلى الرغم من أنها مهجورة اليوم، فقد وجدنا عند نزولنا إليها آثار سكنٍ حديثة نسبيًا: بيتان من حجارةٍ مهدّمة، جرارٌ فخارية محروقة، وزجاجات فارغة.

كانت الجزيرة، التي ترتفع أكثر من ستمائة قدمٍ فوق سطح البحر، تبدو شامخةً نبيلة الهيئة...

كانت جزيرة سانت جون (توبازوس القديمة) هرمًا من الصخور البركانية الداكنة، مشققة بأخاديد عميقة، قاحلة لا نبت فيها ولا شجرة. وعلى جوانبها تنتشر الحفر والمناجم القديمة وأكوام الأنقاض المرمية، شاهدة على قرونٍ من التنقيب عن الأحجار الكريمة.
عبرنا الجزيرة، متسلقين أعلى قممها، فأتيح لنا أن نرى عددًا لا يُحصى من شظايا تلك الأحجار التي يُطلق عليها اسم "التوباز". والحقيقة أنها ليست أحجارًا كريمة بالمعنى الدقيق، بل أشباه كريمة من "الكريزوليت"، ذات لونٍ زيتونيٍّ شفّافٍ ولمعانٍ دهنيٍّ خفيف.
وهذه الكريزوليتات لا توجد إلا في الصخور القاعدية الصلبة، أي تلك الفقيرة في السليكات، ومن هذا النوع تتكوّن الجزيرة كلها.
إن لونها الأخضر القاتم يضفي على المنظر قسوةً مهيبة، تكاد تكون تراجيدية في جلالها القاحل. وعلى نحوٍ يبعث على الدهشة، تطوّق قاعدة الجزيرة حلقةٌ بيضاء من المرجان الأحفوريّ — حيدٌ قديمٌ متحجّر ارتفع عدة أمتار فوق سطح البحر بفعل الحركات الجيولوجية.

وفي حين كنا نتسلّق سفوح الجزيرة، غاص ديباس تحت الماء بحثًا عن الغرغونيات السوداء، وهي من المرجانيات الشجرية التي تتمايل في التيار، وتُستعمل في العالم الإسلامي لصنع مَسابح الصلاة.
ظلّ ديباس يسبح طويلًا على طول الرفّ المرجاني، يتسلّل بين الممرات الضيقة، ويغوص في الكهوف البحرية. لم تكن الصعوبة في العثور على الغرغونيات، بل في جمعها، إذ كانت سيقانها صلبة للغاية.
وأخيرًا عاد إلى السطح حاملًا شجيرةً كاملة، بلغ قطر جذعها عند القاعدة خمس بوصات. ومنذ تلك اللحظة وحتى وصولنا إلى تولون، لم يُرَ أحدٌ على ظهر السفينة إلا وهو ينحت أو يصقل قطعة من المرجان الأسود، حتى أصبح المشهد مثيرًا للجنون من فرط التكرار!

وعندما رسونا في بورسعيد، انقضّ علينا باعةٌ ملتحون كالعادة، غير أن هذه المرة أثار الكمّ الكبير من المرجان الأسود "المقدّس" على السفينة ضجةً غير عادية بين التجّار والحجاج.

وقبل مغادرة سانت جون، حين كانت "كاليبسّو" قد استعدّت للإبحار، أُتيح لي أن أنفّذ غطسةً عميقةً أخيرة.
هبطتُ أنا ونيستروف عموديًا إلى الأعماق، ولآخر مرة شاهدنا العالم السحري تحت الماء.
مررنا أولًا بالمنطقة الزاهية الألوان في الأعماق الستة الأولى، ثم دخلنا منطقة المرجانيات الليّنة (الألسيوناريات) التي تشبه الأزهار الرقيقة، وأخيرًا انزلقنا بمحاذاة جدارٍ صخريٍّ عمودي تتناقص عليه مظاهر الحياة تدريجيًا.
تلاشت صفحة البحر المضيئة فوق رؤوسنا، ووجدنا أنفسنا منعزلين في عالمٍ غامضٍ صامتٍ، بعيدٍ عن الحياة، غارقٍ في ضباب الأعماق.
لقد كنتُ أتمنى أن أهبط أعمق، أو على الأقل أن أبقى هناك قليلًا، في ذلك الجوّ الخارق للطبيعة الذي لا يشبه أي عالمٍ آخر. لكن رفيقي بدأ يعاني من تأثير الضغط المتزايد الذي يسبب نوعًا من السكر أو الغيبوبة البحرية.
فعند عمق مئتي قدم، أبدى رغبته في الصعود، رغم أنه ما زال قادرًا على التحكم في حركاته.
غير أنه عندما بلغ مؤشر الضغط (المانومتر) عمق مئتين وثلاثين قدمًا، بينما كنت أنا أواصل النزول نحو القاع، بدأ يشعر بالدوار الحقيقي الناتج عن التخدير بالنيتروجين.
عندها هزّ رأسه بقوة كمن يحاول طرد غشاوةٍ خانقةٍ عن وعيه، ثم استدار وبدأ الصعود نحو السطح.
فاتبعته أنا أيضًا، متجهًا صوب الشمس التي كانت تلمع فوقنا كنجمةٍ بعيدةٍ في عالمٍ سائلٍ أزرق.

انتهى ..